رواية

عرَبة السَيِّدات

محمد فاروق الشاذلي

دار دَوِّن

عربة السيدات

روايــة

محمد فاروق الشاذلي

محمد فاروق الشاذلي: عربة السيدات، رواية

الطبعة العربية الأولى: يناير ٢٠٢٠

رقم الإيداع: ٢٢٧٧٥ /٢٠١٩ - الترقيم الدولي: 2 - 180 - 806 - 977 - 978

جَميـع حُـقـوق الطبْـع والنَّشر محـْـفُوظة للناشِر

لا يجوز استخدام أو إعادة طباعة أي جزء من هذا الكتاب بأي طريقة

بدون الحصول على الموافقة الخطية من الناشر.

© دار دَوِّنْ

عضو اتحاد الناشرين المصريين.

عضو اتحاد الناشرين العرب.

القاهرة - مصر

Mob +2 - 01020220053

info@dardawen.com

www.Dardawen.com

إهداء

إلى

ندى الروح، زوجتي الحبيبة وحبيبتي الغالية

محمد فاروق الشاذلي

(١)

توقف المترو المكيف فجأة داخل النفق بين محطة «الشهداء» ومحطة «عرابي»، بعد دقيقتين انطفأت الأنوار فسادَ ظلام مرعب داخل العربات المغلقة بإحكام، سرت همهمات متسائلة عن سبب التوقف، وبدأت أضواء الهواتف المحمولة تقاوم الظلام، مع صمت هدير محركات قطار الأنفاق أصبحت أقلُّ همسة تتردد في المكان بصوت واضح، لكن مع تداخل الكلمات لا يصبح أي منها مفهومًا، زاد الأمر سوءًا حين انطفأت مراوح التكييف أيضًا، وبدأ العرق يتصبب من كل الأجساد، في عربة السيدات صرخت فتاة من منتصف العربة، وهي تمسك بهاتفها المحمول:

- هناك حالة انتحار في محطة «عرابي»، وسيتوقف المترو لنصف ساعة على الأقل.

من نهاية العربة هتفت سيدة أربعينية ممتلئة القوام ترتدي اللون الرمادي:

- سنختنق إذا لم يعمل التكييف.

نهضت فتاة تحمل المسطرة المميزة لطلبة الهندسة، لتكسر زجاج مقبض الطوارئ بطرف المسطرة:

- يجب أن نفتح الأبواب قبل أن ينفد الأكسجين.

سرت مشاعر القلق حين لم يستجب المقبض رغم تكرار المحاولة، نهضت سيدة من الطرف الآخر للعربة وهي توجه ضوء هاتفها نحو مربع بارز قريب منها:

- يوجد مقبض آخر هنا.

خلعت امرأة ثلاثينية ذات شعر أحمر قانٍ مصفف بالطريقة الغجرية فردة الحذاء، وضربت الزجاج بالكعب الرفيع، ثم جذبت المقبض لأسفل، وهنا تعالت الصرخات وشهقات الفزع حين لم يستجب أيضًا هذا المقبض، وأصبحن مهددات بالموت اختناقًا.

* * *

(ناهد)

لماذا يطاردنا الموت؟

لماذا يجب أن نخسر في النهاية مَن نُحبُّهم في الحياة؟

لماذا نلتقي وتنمو بيننا مشاعر نبيلة إذا كنا سنفترق في منتصف الطريق لا محالة؟

آهٍ يا قلبي المثقل بالأوجاع، شعرت بثقل الأفكار في رأسي فأسندتها إلى العمود المعدني المجاور لمقعدي في عربة السيدات بالمترو مغمضة عينيَّ؛ حتى لا تفر منها دمعاتي أمام الناس، إنها المرة الأولى التي يغيب فيها ابني

«إياد» عني، تركته في المستشفى وغادرت، تركت قطعة من روحي وحيدة بين أغراب، أيّ أمٍّ أنا!، كيف استجبتُ لأوامر الأطباء بالمغادرة تاركةً طفلي الوحيد يصارع ورمًا سرطانيًا قاتلًا ينهش بوحشية مخه الصغير؟ لم أستطع أن أغالب دموعي فغلبتني، وفلتت من بين جفوني المغمضة، لتنساب على وجنتي حارقةً روحي على ولدي، لماذا اختار السرطان أن يقتنص مني ابني الوحيد الذي ظللت أحلم به طوال السنوات الخمس الأولى من زواجي؟ تحملت خلالها كل سخافات حماتي التي تمنَّت أن يتزوج ابنها من امرأة أخرى؛ كي تنجب له أطفالًا، ونظرات الجميع التي توحي بأنني امرأة ناقصة لن تكتمل إلا بالإنجاب، توقف المترو وصوت الإذاعة الداخلية يعلن وصولنا إلى محطة «عزبة النخل»، نهضت مسرعة للنزول قبل غلق الأبواب، خاصة وأنها من المحطات المزدحمة التي يعاني روادها؛ بسبب تدافع الناس للركوب والنزول، لمحت الساعة الضخمة على رصيف المحطة تشير إلى الثامنة مساءً، خارج المحطة أمعنت النظر في سائقي «التوك توك» حتى رأيت زوجي «محمد»، توجهت إليه بخطوات بطيئة، حين لمحني آتية وحدي أسرع ليقترب مني:

- أين «إياد»؟

أمسك يدي ليساعدني على ركوب «التوك توك» -الذي يعمل عليه بعد انتهاء ساعات عمله الحكومي- حين لاحظ أني أمشي بصعوبة، أعاد سؤاله بلهفة ممزوجة بالخوف من الإجابة:

- أين «إياد» يا «ناهد»؟

خرجت من فمي الكلمة، وكأنني أتحدث عن شخص آخر:

- احتجزوه.

نظر إليّ في المرآة، ثم توقف بالـ«توك توك» جانبًا، والتفت نحوي صامتًا، لم أجد قوة لأتحدث، فتنفست بعمق كي أعين كلماتي على الخروج:

- تأكدوا مما كنا نخشاه، وجدوا ورمًا خبيثًا بالمخ، ويحتاج إلى جراحة عاجلة؛ لاستئصاله في أسرع وقت.

ردَّ بصوت هامس، مكسور، وعين لا تستقر على مكان:

- كم تتكلف العملية؟

أحطت وجهي بكفيّ، وأزحت رأسي المثقلة بالهموم إلى الوراء:

- ما يساوي راتبي وراتبك وإيراد «التوك توك» لمدة عام على الأقل.

غلبنا الصمت طوال الباقي من الطريق القصير، نزلت على ناصية شارعنا، وعدت إلى المنزل أجرجر قدميّ بآخر ذرات طاقة أمتلكها، فتحت باب الشقة ليستقبلني الصمت والظلام والوحدة، انهار جسدي الممتلئ على أقرب مقعد، فلتت الحقيبة من يدي لتسقط على الأرض، بحثتُ عن هواء أتنفسه فلم أجد، شعرت باختناق ينتزع روحي مني فمددت يدي أفكُّ رباط الحجاب لأحرر رقبتي ورأسي، ثم شهقت أكبر قدر ممكن من الهواء، دخلت حجرة «إياد»، جلست على سريره، واحتضنت ملابسه بشوق، ثم دفنت وجهي في وسادته ومنحت دموعي حريتها.

* * *

(إيمان)

هل ستستمر بيننا هذه الحالة من الجفاء إلى الأبد؟

هل سأظل كمًّا مهملًا في حياته؟

لم أسمع منه كلمة «أحبك» أو جملة رومانسية منذ فترة لا أذكرها لطولها، آخر مرة احتضنني فيها كانت حين أراد أن ينال حقه الشرعي مني كزوجة، وذلك منذ أسابيع، لم يربّت يومًا على كتفي، لم يُهدِني وردة أبدًا، نظرت إلى الساعة، كانت العقارب قد تجاوزت منتصف الليل منذ قليل، لم أشاهد عقارب الساعة تتعانق عند منتصف الليل وزوجي «أمير» إلى جواري منذ سنوات، دائمًا هو على المقهى مع أصحابه، ودائمًا أنا وحدي مع الطفلين، أخرج معهما وحدي، أشتري لهما احتياجاتهما وحدي، حتى حينما قدَّمت أوراق «سما» و«أحمد» إلى المدرسة لم يكن معي، وصلتني رسالة على «الفيسبوك» تسليتي الوحيدة في هذا الفراغ القاتل، تناولت الهاتف، وفتحت الرسالة، أحد السخفاء كالعادة، رسالة سمجة كافية لتصيبني بالعصبية «هاي.. ممكن نتعرف؟» مصحوبة بكفٍّ أصفر يلوِّح، مَن الأحمق الذي اختار هذا اللون المستفز؟ يا له من لون يقتل الفرصة في التعارف قبل أن تولد، مسحتُها وألقيت الهاتف من يدي، غيَّرت قنوات التلفاز عشرات المرات، لكن كل ما يُعرض مملٌّ وسخيف، أو أن الضجر جعله كذلك، برامج وأفلام مكررة بشكل يُزهق روحي، تناولت هاتفي من جديد، وفتحت موقع «الفيسبوك»، وجدتُ إشعارًا أن «فارس» نشر شيئًا

جديدًا على صفحته، سارعت بمطالعة المنشور، مسَّت كلماته روحي فورًا: «الاهتمام هو العملة الرسمية لمملكة الحب، بدونه يصبح حبك مفلسًا ولن يدوم»، سارعت بكتابة تعليق «الاهتمام.. الاهتمام.. الاهتمام، أخيرًا استطاع رجل أن يعثر على كلمة السر»، دائمًا أنتظر منشورات «فارس» كأنه يتحدث بلسان مشاعري في كل وقت، يعرف ما يدور بعقلي، ثم يصوغه في منشور بجمل شاعرية رقيقة، تمسُّني كلماته بشكل عجيب، في العادة يكتفي بزرِّ «أعجبني» دون أن يردَّ على تعليقاتي، لم يكن يستجيب بالرد إلا على تعليقات أصدقائه المقربين فقط، غلبني النعاس، فأطفأت التلفاز، مررت بحجرة الطفلين لأتأكد أنهما بخير، ثم ذهبت إلى حجرتي، استلقيت على سريري أستعيد كلمات «فارس»، لو أني أعرف زوجته لحسدتُها بكل تأكيد، لا بد وأنها تعيش معه حالة كاملة من الإشباع العاطفي، لماذا اخترتُ لحجرة نومي اللون الأبيض؟ لون يمنح شعورًا بالاتساع، لا حميمية فيه، لون محايد لا يحتضن مشاعرنا، الحياد يقتل في بعض الحالات، سمعت صوت باب الشقة يُفتح، فأغمضت عيني، وتصنَّعت النوم، شعرت به يعبث في المطبخ يبحث عن شيء يأكله، بعد قليل دخل إلى الحجرة وأضاء النور، سألني بفم مملوء بالطعام:

- نائمة؟

لم أجيب تجنُّبًا للمشاجرة المعتادة التي أطالبه فيها دومًا أن يمنحني بعضًا من وقته، فيردَّ ببرود يزيدني عصبية: «لا ينقصك شيء»، ارتدى ملابس النوم وأطفأ النور، دخل السرير، ومنحني ظهره كالمعتاد، كنت أتمنى لو احتضنني في هذه اللحظة، ولو من أجل إشباع جسده، أو حتى لو اكتفى

ونام ووجه لي أو على ظهره، كنت سأزحف إلى حضنه، برودة روحي تحتاج إلى دفء حبه، لكن حائط ظهره دائمًا يحتجز أحلامي خلفه، فلا تصل إلى قلبه أبدًا.

* * *

(منى)

استيقظت في التاسعة صباحًا على اتصال من «مدام يارا» تطلب مني أن أذهب إليها اليوم؛ لتنظيف شقتها، حمدت الله كثيرًا أن أتى هذا الاتصال، فقد أنفق المحروس زوجي آخر نقود بالمنزل مساء أمس؛ ليشتري «شريط البرشام» الذي يتعاطاه، نهضتُ مسرعة، غسلت وجهي على عجل، ولممت شعري «كحكة» تحت الطرحة، فلا وقت لتصفيفه، تعمّدت ألا أوقظ طفلي «محمود»؛ حتى لا يسأل عن طعام فلا يوجد في المنزل كسرة خبز واحدة، سأشتري له ما يحبّ عند عودتي قبل أن يسطو «أشرف» زوجي على ما تبقى من نقود، كان ملقىً على الأريكة بالصالة، لا أدري هل هو غائب عن الوعي من أثر المخدر أم إنه نائم، لم أملك وقتًا كي أنظّف فوضى بقايا سهرته بالأمس مع أصحابه، تركت كل شيء كما هو وهرولت خارجة، سأنظف هذه الفوضى عند عودتي، قبل أن أغلق الباب لاحقتني كلماته:

- إلى أين؟

عدتُ خطوةً إلى الداخل، كان ينهض متجهًا نحو المطبخ وأنا أجيبه بغيظ:

- طلبتني «مدام يارا» في عمل.

سمعت صوت باب الثلاجة يغلق بقوة:

- دائمًا فارغة هذه المخروبة، ألا يوجد طعام.

توجهت نحو المطبخ وروحي تكاد تقفز من أنفي:

- وهل ملأت يومًا هذه المخروبة ونحن رفضنا؟ على كل حال سأشتري طعامًا عند عودتي.

دفعني من طريقه؛ ليمر إلى الحمام:

- لا تنسَيْ أن تشتري لي علبة سجائر.

اشتدَّ غيظي، ولكني أجبته مرغمةً:

- حاضر.

أغلق باب الحمام في وجهي، وهو يضيف في خشونة:

- لا توقظيني عند عودتك، انتظري حتى تنتهي من إعداد الطعام أولًا.

اقتربت من باب الحمام، وقد نفد صبري:

- ألن تذهب إلى الورشة اليوم أيضًا يا سعادة البك؟

فتح الباب بوجه غاضب يتقاطر منه الماء، عروقه نافرة ويسيطر عليه اللون الأحمر:

- تعرفين أني تشاجرت مع «الأسطى حمودة»، سأبحث عن ورشة أخرى فيما بعد.

دلف إلى حجرة النوم، واستلقى على السرير، فذهبت وراءه:

- أسمع هذه الأسطوانة منذ شهر يا «أسطى».

تقلب على السرير:

- توكلي على الله، دعي يومك يمر.

أعرفه حين تتملكه العصبية، قد ينتهي الأمر بعلامات زرقاء تسكن وجهي أو جسدي إذا كنت حسنة الحظ، ولم يصل الأمر إلى كسر أو شرخ في إحدى عظامي، غادرت المنزل وأنا ألعنه، مررت بـ«أم علي» التي تبيع البقالة من شباك إحدى حجرات شقتها بالدور الأرضي في المنزل المجاور، طلبت منها أن تقرضني ثمن المواصلات، ناولتني عشرة جنيهات بوجه عكر، لوَت شفتيها وهي تتحدث إليّ، بينما تنظر إلى الجانب الآخر:

- ثقل حسابك يا «أم محمود».

ربت صدري استعطافًا، وأنا أجاهد كي أبتسم لها:

- سأسدد اليوم جزءًا منه، أعدك.

خطفت من يدها الجنيهات العشر، وانصرفت مسرعةً قبل أن تطلق مزيدًا من رصاصات كلماتها.

* * *

(٢)

بدأت الصرخات تخفت بالتدريج مع انشغال كل راكبة بهاتفها المحمول، في محاولة للاتصال بذويها؛ لتخبرهم بما يحدث في المترو، ضعف شبكات الاتصال داخل النفق حال دون إتمام بعض المحادثات، التوتر العصبي بينهن لم يخفت، همهمات الدعاء والصلاة تردَّدت في العربة، بدأ عدد من الراكبات في التحرر من الحجاب؛ لتخفيف عبء الحرارة، ارتفعت بعض الأصوات بقراءة القرآن أو الدعاء أو الصلوات للرب، شرعت الواقفات في الجلوس على الأرض، فلم تتحمَّل أعصابهن الأمر، ودارت دوائر الحوار بين مجموعات مختلفة.

قالت سيدة ترتدي اللون الأحمر بصوت عالٍ:

- لعن الله الرجال، يأبى أحدهم أن يموت وحيدًا، ويرغب في قتلنا اختناقًا بسببه.

هتفت فتاة في عمر المراهقة وهي تمسك بهاتفها تطالع الخبر على المواقع الإخبارية:

- حالة الانتحار كانت لسيدة.

وضعت المرأة ذات الرداء الأحمر يدها على صدرها، وهي تشهق:

- رحمها الله، وألهم أبناءها وأهلها الصبر، لا بد وأن زوجها هو الذي قادها للجنون، وأوصلها لهذه الميتة الشنيعة.

التفتت امرأة ترتدي الأسود نحوها بحدة:

- لقد ماتت كافرة، لا يجوز عليها الرحمة.

اندفعت طالبة الهندسة تصرخ في وجهها:

- من منحك مفاتيح الغيب لتعلمي من الكافر ومن المؤمن، وتحددي من في الجنة ومن إلى النار يساق؟

* * *

(منى)

حملتُ صينية الشاي، ووقفتُ في نهاية الممر المؤدي إلى الصالة، ناديت أشرف ليتناولها من يدي، فوجئت به يطلب مني الدخول بها؛ لأنه لا يستطيع الوقوف، كان من المستحيل أن أدخل بملابس المنزل التي أرتديها الخفيفة الكاشفة لجيدي وذراعيّ في وجود أصدقائه بجلسة «المزاج» المعتادة، تركت الصينية على الأرض، وذهبت إلى غرفتي؛ لأرتدي عباءتي وطرحتي، لمحت أحد أصدقائه يأخذ الصينية، وهو يسترق النظرات نحو باب غرفة نومي بطريقة فجة ووجهٍ خال من الحياء.

أسرعتُ بالاختباء خلف باب الحجرة، ثم صككتُ الباب بقوة في وجهه، جلست على سريري وأنا أشعر بدمي يغلي في رأسي، وأطرافي ترتجف من الغضب، هذا ما جرَّته علينا جلسة الحشيش والبرشام، سأناديه لأخبره أن يُخرج هؤلاء الحثالة من منزلي، اقتربت من الباب، وقبل أن أمسك المقبض انتابتني رعشة خوف من ردِّ فعله، هل يُصدِّقني؟ ماذا لو أهانني في وجود أصدقائه؟ ماذا لو اشتبكا، وكانت النتيجة مقتل أحدهما ودخول الآخر للسجن؟ تراجعت خطوات إلى الوراء لأعيد التفكير في الأمر، مرَّ بعض الوقت حتى حسمتُ أمري، فتحت باب الغرفة، وناديتُ زوجي، فاجئني أن أخبرني أحدهم بلسان ثقيل أن زوجي نام، وأنهم يستأذنون في الانصراف، أضاف آخر يطلب مني أن ألحقهم؛ لأغلق الباب من الداخل؛ لأن مزلاج الباب لا يُغلق إلا من الداخل منذ شهور، وكل أصدقائه يعلمون ذلك، لم أردَّ عليهم وانتظرت وقلبي يدق بعنف، كيف آمن زوجي أن ينام قبل أن يتأكد من انصراف أصحابه «المساطيل»؟ ماذا قد يحدث في نومته؟ وقفت في مكاني خلف باب حجرة نومي قليلًا حتى تأكدت من خروجهم، وسارعت لأغلق الباب، فوجئت بنفس الشخص الذي كان يختلس النظر إلى جسدي وهو يعود وعلى وجهه ابتسامة لزجة ونظرة غير مريحة:

- لا مؤاخذة، نسيت هاتفي.

هرولت ناحية الممر، واختبأت في المطبخ، وقدماي ترتعشان، لمحته وهو يحاول التلصص من جديد، حدّثته بكل حدة يملكها صوتي:

- هل انتهيت؟

- نعم، كنت قد نسيته على المنضدة.

حدثني قلبي أنه تعمَّد ترك هاتفه، فأجبته بغلظة رغم ارتعاشة صوتي:

- تفضّل غير مطرود.

جاءني صوته وأثر البرشام يبدو في غاية الوضوح:

- شكرًا يا «أم محمود»، أثقلنا عليكِ.

لم أجبه هذه المرة، وأطلت انتظاري في المطبخ؛ لأتأكد من عدم عودته، ثم هرولت لأغلق الباب جيدًا، استندت على الباب بظهري لألتقط أنفاسي، وأنا أضع يدي على قلبي حتى تهدأ ثورة نبضاته، ثم التفتُّ إلى زوجي النائم، جلست بجواره ولكزته في كتفه:

- «أشرف».. استيقظ أريدك في أمر مهم.

* * *

(ناهد)

- مساء الخير يا مدام «ناهد».

رفعت رأسي نحو الباب لأجد فتاة متوسطة الطول ترتدي بنطالًا أسود في غاية الضيق وكنزة قطنية حمراء تكاد تتمزق عند صدرها، وتصل بالكاد إلى أول البنطال، رائحة عطرها رغم هدوئه إلا أنه نفذ إلى أنفي بقوة، تضع

مساحيق تجميل تزيد وجهها إشراقًا وشعرها الأشقر يلمع، ويجعلها تبدو كمن خرجت من صالون التجميل منذ قليل، لم أشعر بارتياح نحوها، ووجدت نفسي تلقائيًا أقارن بين جسدي المشرف على الامتلاء وجسدها المتناسق، تحسست التجاعيد التي بدأت في الظهور أسفل عيني بينما هي وجهها مشدود في نعومة، كانت تبدو مثل فتيات الإعلانات، بينما أبدو في سنِّ جدتها، رغم أنني لم أصل إلى منتصف الأربعين، حين طال صمتي، رمقتني بعينيها العسليتين ذواتي الأهداب الطويلة، وسألتني:

- حضرتك مدام «ناهد»، أليس كذلك؟

أشرت برأسي إيجابًا، فتقدمت الفتاة حتى اقتربت من مكتبي، وجلست دون دعوة، سألتني أولًا عن صحة «إياد»، وكيف حاله الآن؟ تعجبت أنها تعلم عن حالة ولدي دون معرفة سابقة بيننا، أجبتُ باقتضاب:

- إنه بخير.

ابتسمت وناولتني بطاقة عمل وهي تعرف نفسها أنها «من طرف الأستاذ» دون أن تنطق اسمه أو اسمها، تناولت البطاقة وقرأت الاسم بها، إنه أحد المحامين المشهورين الذين تحتل أخبارهم صفحات الجرائد، ويظهرون في التلفاز باستمرار، قبل أن أنطق، مدَّت يدها بمظروف صغير:

- هذه هدية بسيطة من الأستاذ لأجل «إياد»، ويستأذن أن ينال شرف زيارتك في مكتبه غدًا عند التاسعة مساءً، أظن أنه بعد انتهاء مواعيد زيارة المستشفى؛ ليكون لديكِ الوقت الكافي للاطمئنان على «إياد».

نهضت الفتاة وغادرت الغرفة دون أن تخبرني أي تفاصيل أخرى، ورغم أني ناديتها أكثر من مرة إلا إنها اختفت في زحام الممر المؤدي إلى المصعد، نظرت حولي لأجد زملائي الموظفين منهمكين في شئونهم وكأن شيئا لم يحدث في المكتب منذ دقائق، عدتُ إلى مكتبي، وأخذت مفتاح حمام السيدات، وهرولت إلى هناك وأنا أخبِّئ المظروف جيدًا، تأكدت من غلق الباب خلفي بإحكام، وفتحت الظرف لأجد بداخله خمسة آلاف جنيه.

* * *

(إيمان)

الجلسة المملة ذاتها أمام التلفاز مثل كل صباح والصغار في مدرستهم، أفلام قديمة، برامج طهي مملة ومكررة تقدِّم مأكولات لا يجربِّها أحد، إعادات لبرامج حوارية تصيبك بالصداع أو اليأس أو تلغي عقلك، صوت الرسائل المميز لبرنامج محادثات الفيسبوك جعلني ألتقط الهاتف من جواري، توقعت أن تكون رسالةً بدعاء يعاد تمريره دون قراءته أو أحد الفارغين يطلب التعارف، أو معلومة خطيرة يتناقلها الناس بلا وعي، وغالبًا لا أساس لها من الصحة، لكني وجدت اسم «فارس» يزين خانة المرسل، ترددت لثوانٍ، هل أفتح الرسالة؟ غريب أمره، لا علاقة سابقة بيننا ليرسل لي رسالة خاصة، وفي نفس الوقت لا يردُّ على تعليقاتي في منشوراته رغم تعدُّدها، قررت أن أقرأ الرسالة، ولن أجيب عنها، كان الفضول هو الدافع الوحيد الذي جعلني أفتحها: «أعتذر عن مراسلتك دون سابق معرفة، مع ملاحظة أني غير معتاد على مراسلة النساء على الإطلاق، لكن تعليقك أمس على منشوري كان هو

المشجع لي، فهل لي بسؤال؟»، لست أدري ما السبب الذي دفع دقات قلبي لهذا التسارع؟ حاولت توقُّع السؤال الذي يريد إرساله لي فلم أفلح، تركتُ الهاتف من يدي، وقمت أذرع الغرفة جيئةً وذهابًا، بعد أقلّ من ربع الساعة غلبني فضولي، وأمسكت الهاتف، وكتبت ردًا من كلمة واحدة: «تفضل»، قصدت أن تكون رسالتي رسمية وقصيرة؛ حتى لا تفضح لهفتي، ثم وضعتُ الهاتف على الوضع الصامت، وتركته وذهبت إلى المطبخ لإعداد الطعام، صحيح أن الوقت ما زال مبكرًا على موعد عودة الصغيرين من المدرسة أو عودة «أمير» من العمل، لكن كان يجب أن أشغل نفسي عن الهاتف، بعد ساعة كنت انتهيت من إعداد جزء من الطعام وقررت تأجيل الباقي لما بعد، اقتربت من الهاتف ودقات قلبي تعلو دون أن أدري السبب، تناولت الهاتف لأجد رسالتين متتاليتين من «فارس»، كتب في الرسالة الأولى: «قبل أن أخبرك بسؤالي أود أن أشكرك على متابعتك الدائمة لمنشوراتي وتعليقاتك الجميلة، وأقدم اعتذاري لعدم الرد عليها؛ خوفًا من مضايقتك»، أما الرسالة الثانية فكانت: «بالنسبة لسؤالي: هل حقًا ما تريده المرأة هو الاهتمام؟ كنت أظن أن هذه رؤيتي الخاصة، لكن تعليقك أثار انتباهي حين قلتِ إن الاهتمام هو كلمة السر»، كتبت عدة ردود، ثم مسحتها قبل الإرسال، لم أجد كلمات مناسبة للرد، تركتُ الهاتف، وتذكرت أن الرسائل بيني وبين «أمير» لا تخرج عن نطاق الالتزامات الأسرية، لم يسألني يومًا عن أفكاري أو انطباعاتي، لم يطلب رأيي في شيء خاص أو عام، أغلبها رسائل مختصرة، جافة، بلا روح، أمسكت الهاتف من جديد، وكتبت ردّي على سؤاله: «كلامك في المنشور مسّ قلب الحقيقة، لا حب بلا اهتمام، الاهتمام أحد أهم ترجمات المشاعر، لا يمكن أن يهتم إنسان بآخر إلا إذا كان يكن له مشاعر نبيلة، أما كلمة أحبك وحدها

ستفقد قيمتها مع الوقت إذا لم يصحبها حد أدنى من الاهتمام»، شيء ما منعني من ترك الهاتف أو إغلاق برنامج المراسلة، وكأن هناك جزءًا داخلي ينتظر الرد، ودون أن أدري اكتشفت بعد قليل أننا نتحدث منذ ساعتين، تحدثنا خلالهما في عدة أمور، عرف عني أشياء لم أكن لأحكيها لصديقاتي المقربات، وعرفت عنه أمورًا لم يقصَّها على أحد غيري كما أخبرني، دفعني هذا الاكتشاف إلى الارتباك والدهشة، لم أتحدث مع «أمير» منذ سنوات مثل هذا الوقت المتواصل، وجوده القليل في البيت حرمني من ذلك، استأذنته، وأغلقت برنامج المحادثات، وهرولت إلى المطبخ في خفة؛ لأنهي طعام الصغيرين وأنا أدندن بعض أغاني «فيروز».

* * *

(٣)

كادت طالبة الهندسة والمرأة الجالسة قبالتها تشتبكان وهما تتناقشان حول كفر المنتحرة، لكن الراكبات الأخريات فصلن بينهما، تساءلت إحداهن:

- ألا يجوز أنها كانت مريضة نفسيًا، ومرضها هو الذي دفعها للانتحار؟

أجابتها ذات الزي الأسود في حدة، وكأنها تؤنِّبها على الفكرة:

- روحها ملك خالقها، ولا يحق لها قتل نفسها، إنها لَكبيرة من الكبائر، كيف لا تدركن ذلك؟

كانت تصرخ في الجملة الأخيرة، وكأنها مُدرِّسة تنهر طلابها الكسالى، من جديد استُفِزَّت طالبة الهندسة من ردِّها، فتدخلت في الحوار:

- ما رأيك يا أختاه أن هناك حديثًا نبويًا يقول: «رُفِع القلم عن ثلاث...» من بينهم: «المجنون حتى يفيق».

لم تلتفت إليها السيدة الأربعينية وهي تجيب، بينما رفعت راحة يدها اليمنى إلى أعلى:

- أرجوكِ يا أخت لا تتحدثي فيما لا تعلمين، تحدثي في الهندسة، وسأسمعك بكل تأكيد، أما أي أمر آخر...

صمتت دون أن تكمل جملتها وهي تشيح بيدها، مما أعاد الموقف بينهما للاشتعال من جديد.

* * *

(ناهد)

وقفت خلف الزجاج العازل أشاهد «إياد» وهو نائم على سريره محاط بالأجهزة الطبية وموصول بها لقياس وظائفه الحيوية ونبضات قلبه ومستوى الأكسجين بالمخ وغيرها من قياسات أخرى لم استوعبها، احتلَّ اللون الأصفر ملامحه البريئة والوهن سيطر على جسده الصغير، تصبَّب العرق من جسدي، وثقلت أنفاسي، وتباطأت نبضاتي وكأن روحي تنسحب مني وأنا أرى ولدي تنسحب منه الحياة، طبعتُ قبلةً على الزجاج، وقلبي يتمزق؛ لأنني أعجز عن وضعها على وجنة صغيري، وضعَت الممرضة كفَّها برِقَّة على كتفي، وغمغمت ببضع كلمات للمواساة لم تصل إلى سمعي، فكل تركيزي كان منصبًا على ولدي، صحبتني إلى استراحة الزوار وهي تربت ظهري، وتطلب مني أن أتحلى بالإيمان، وأدعو له في صلاتي، ثم تركتني وانصرفت، رغم ازدحام الاستراحة بالزائرين شعرتُ بالوحدة تنهش روحي، جسدي يرتعش وفكّاي يصطكان وكأن الشتاء قد حل فجأة، يا رب، أنا أضعف من أن أحتمل هذا الفراق، بحق حبيبك النبي ردّ على صغيري صحته وعافيته، نهضت بصعوبة، واتجهت نحو غرفة الأطباء، رجوتهم أن يسمحوا لي بالدخول إلى «إياد»، لكنهم رفضوا، قبَّلت يد أحدهم، لعل قلبه يرقُّ، لكنه سحب يده وهو يقسم أنه لا يستطيع، أضاف أنه يشعر بي، لكن هذا لمصلحة

الصغير، انسحبتُ من الغرفة وأنا على يقين من أنه لا يمكن أن يكون قد فهم مشاعري، مشاعر الأم لا يفهمها الرجال مهما بلغ تعاطفهم، لن يدركوا أبدًا ما هو شعور أن قطعة مني تنمو بداخلي، وأنا أشعر بها ساعة بعد أخرى، كنت أضع يدي على بطني في جوف الليل أتحسس نبضات قلبه وهو جنين، حدثته قبل أن يولد، وقصصت عليه حكايتي منذ وعيت العالم من حولي، أخذت رأيه مئات المرات فيما أهمَّ تفكيري كما لم أفعل مع إنسان آخر، الحبل السُّري لم يمنحه الغذاء مني وحسب، بل منح روحه لمحات من روحي أيضًا، كيف يدرك هذا الطبيب معنى الأمومة؟ كيف يدرك السر من لم يطلع عليه؟

سمعت رنين الهاتف، فتجاهلته، حالتي النفسية لا تسمح لي بالتحدث مع أيٍّ كان، عاد الرنين يقتحم وحدتي من جديد، فأخرجت الهاتف من حقيبتي لأضعه على حالة الصمت، وجدت اسم «محمد» يضيء الشاشة، لم يكن صوته واضحًا؛ بسبب ضجيج الشارع وصوت آلات التنبيه المحيطين به، رفع صوته حدَّ الصياح كي أسمعه، وهو يسأل عن حالة «إياد»، ولم أجد في صوتي قوةً على الرد، وهذا وحده كفاه ليفهم.

* * *

(منى)

حاولتُ قدر الإمكان أن أجعل الطرحة تحيط بوجهي لأخفي الكدمة الزرقاء التي تركها زوجي على فكي بقبضته هذه الظهيرة حين أخبرته بما فعل صاحبه ليلة أمس، لم يصدقني كما توقعت، اتهمني بأني ألَّفْتُ هذه القصة

حتى لا يُحضر أصحابه إلى المنزل، أقسمتُ له وأنا أبكي من الألم، لكنه لم يتوقف عن ضربي وسبِّي، حتى هربت منه إلى الشارع، مشيتُ كثيرًا دون أن أحدِّد هدفًا أصل إليه، أدركت أن ألمي لم يكن بسبب الضرب، بل لشعوري بالهوان، لم يؤلمني جسدي الذي لم يهتمَّ «زوجي» بالحفاظ عليه بقدر ما آلمتني روحي، لم يُهِنِّي السباب والضرب، بل أهانني شعور الرخص، رخيصة عند الرجل الذي مِن المفترض أن يجعلني غالية وعزيزة، كلَّت قدماي لكثرة المسير، وكأني أمشي منذ سنوات، شعرت بإرهاق أعوام من العمل لأجل أن يستولي على نقودي ليتعاطى، لم أكن أعمل لأجله، بل لإطعام «محمود»، لكنه لم يفهم، لا أذكر أنه فهمني مرة، لو أنه فهم ما أسعى لأجله، لحارب معي الدنيا، بدلًا من أن يحاربني معها، جلست على الرصيف أبكي حتى غابت الشمس، إلى أين أذهب الآن؟ وأنا بلا أم أذرف دمعي على صدرها، بلا أب أحتمي بين ذراعيه، أو أخ يغضب لإهانتي، فيستعيد لي حقي وكرامتي، وزوج شقيقتي الوحيدة لا يطيق النظر في وجهي، ولن يسمح لها بأن تستضيفني في بيتها ولو لليلة واحدة، هل تناول «محمود» أي طعام اليوم؟ لعله الآن يلعب مع الأطفال في الشارع دون أن يدرك أيّ عذاب أتحمل لأجله، هل سيفهم حين يكبر ويعوضني مشقة الأيام؟

عدتُ إلى المنزل بعد أن اصطحبت «محمود» من الشارع، حمَّمته، سأل عن طعام ولم أجد في البيت سوى قطعة جبن باقية منذ أيام، وكسرة خبز جافة، وضعتهما أمامه فأكل مرغمًا من الجوع رغم تذمره، اصطحبته إلى غرفته، ونمت في حضنه حتى أيقظني «أشرف» حين عاد قرب الفجر، وأثر الحشيش يفضح أين كان، ألمح لي أنه يريدني، فتمنَّعت، جذبني من ذراعي حتى كاد يخلعه، فسقطت على الأرض، نال ما أراد بالغصب، ثم صعد إلى السرير ليغفو،

وتركني أبكي قهرًا حتى غلبني النوم على الأرض، كما غلبني كل شيء آخر في الحياة.

* * *

(إيمان)

عاد الصغيران من مدرستهما يوم الخميس وهما فرحان أن غدًا إجازة، تناولا الطعام وجلسا أمام قنوات الأطفال، جلست بالقرب منهما لأتأكد من صلاحية ما يشاهدان لعمريهما، أمسكت هاتفي أقتل الوقت على موقع «الفيسبوك»، وأنا أتابع التلفاز بنصف تركيز، ظهر أمامي إعلان ملابس نوم للزوجات، تصفحتُ الصور وراقني بعض منها، لمعت في ذهني فكرة، فاتصلت بأمي واستأذنتها أن يبيت «أحمد» و«سما» لديها اليوم، رحَّبت بالفكرة وناولتْ لأبي الهاتف، تحدثنا لبعض الوقت، ثم اتصلت بزوجي لأطلب منه أن أمرَّ اليوم على والديّ، فسمح لي، تركتُ الصغيرين لدى جديهما، وذهبت إلى أحد المراكز التجارية، واشتريت بعض ملابس النوم، اخترت ألوانًا جديدة وموديلات مختلفة لم أملك مثلها من قبل كنوع من التجديد والتغيير، مررتُ في طريقي على صالون التجميل، صبغت شعري باللون الأحمر القاني وصففته على الطريقة الغجرية مثل المطربة شاكيرا، عدتُ إلى المنزل، جربت كل الملابس الجديدة، واخترت الأزرق القصير مفتوح الصدر ليبرز أنوثتي، كان رداءً غخريًا يتناسب مع تصفيفة شعري الجديدة، وضعت شموعًا عطرية في أكثر من مكان بحجرة النوم، نظرت إلى المرآة عشرات المرات؛ لأتأكد أن زينتي تزيدُ من جمالي، حين سمعتُ صوت الباب سارعتُ بإشعال الشموع،

وانتظرت في السرير، حين دخل إلى الغرفة ابتسم وهو يلقي تحية المساء، نهضت في دلال ولففت ذراعيَّ حول عنقه، بدأ يفتح أزرار القميص فساعدته، وناولته منامةً نظيفةً من الدولاب، ارتداها وهو يسأل عن الطعام، أحضرتُ له العشاء إلى الغرفة، تناول بضع لقيمات وهو صامت، سألته كيف سار يومه فأجاب:

- «العادي».

ثم نهض ليغسل يديه، وعاد إلى السرير، أمسك هاتفه بعض الوقت ثم سألني:

- ألن تنامي؟

أجبته وقد بدأ شعور بالإحباط يتسلل إليّ:

- لا رغبة لي في النوم الآن.

اضطجع في السرير، فالتصقت به، ووضعت رأسي على كتفه، وضع الهاتف جانبًا، وكأنه يتجنَّب أن أرى ما يفعل، ساد صمت قصير، ثم سألني وهو يشير إلى الشموع:

- هل انقطعت الكهرباء اليوم؟

ظننته يمزح وأنا أجيب بابتسامة:

- إنها شموع عطرية، لأجل الرومانسية يا عديم الرومانسية.

استدار نحوى، ثم بدأ بلا مقدمات، وخلال دقائق كان الأمر قد انتهى، بلا مشاعر، نهض بعدها مباشرة إلى الحمام، دون أن ينطق بكلمة، لم يقل رأيه في لون شعري الجديد أو في قميص النوم، لم يأبه بما أحسست به، لم يخبرني عن مشاعره أو انطباعاته عن لقائنا، عاد من الحمام، ثم قبَّل جبيني ومنحني ظهره لينام.

قمتُ وأطفأتُ الشموع وذهبت لأستحمَّ، شعرت أني أهدرت نقودي وزينتي ووقتي، بل في الحقيقة أهدرت الليلة أنوثتي، لماذا منحته ليلةً كهذه لم يسعَ إليها، كنت أتمنى أن يصلني منه شعور الرغبة واللهفة، تمنيت أن أسمع منه كلمة لطيفة ولو بشكل عابر، لم يصل أذني سوى صوت أنفاسه اللاهثة وتصادم أجسادنا في حركة آلية لأداء وظيفة الزواج، أين ذهبت مشاعره نحوي؟ لماذا لم ينطق؟ حتى حينما أرادني أن أغيِّر مكاني لم يطلب، لم يأمر، كل ما فعله أن مدّ يده إلى كتفي وجذبني لأنام كما يريد، ثم ألقى بجسده فوقي بلا مشاعر، شعرت ببرودة رغم الماء الدافئ، فخرجتُ أتدثر برداء الاستحمام الوردي، حاجزٌ ما منعني من البقاء في الحجرة بعد ارتداء ملابسي، التقطت هاتفي وخرجت إلى غرفة المعيشة.

* * *

(٤)

مرّ ما يزيد على عشرين دقيقة منذ توقف المترو داخل النفق، مع مرور الوقت بدأ الصمت يسيطر على عربة السيدات، العربة الوحيدة التي لم تتمكَّن راكباتها من الهرب، لم تكن أي منهن تدرك أن مسئولي المترو لا يعلمون بوجودهن محبوسات في العربة، حين رأى عمال المحطة التالية ركاب المترو المتوقف يفدون عبر النفق ساد الظن أن هؤلاء هم كل الركاب في القطار المتوقف، لم يهتم أي منهم من التأكد من خلوّه من الركاب، في محطة عرابي كان عمال الإسعاف يرفعون أشلاء جثة السيدة التي تمزَّقت تحت العجلات، استغرق الأمر وقتًا أطول من المعتاد؛ لأنها ألقت نفسها تحت المترو لحظة دخوله إلى المحطة قبل أن يخفف سرعته، مما أدى إلى تناثر الأشلاء على مسافة طويلة فوق القضبان، وكما تقتضي الإجراءات كان لا بد من انتظار النيابة؛ لمعاينة المكان قبل أن يتم رفع الأشلاء، ثم منح الأذن لاستئناف حركة القطارات، بينما تزاحم ركاب المحطة على الرصيف؛ للمشاهدة، وفضول البعض منهم أبطأ من الإجراءات المعتادة.

* * *

(ناهد)

أحبُّ عمارات «وسط البلد» وزخرفتها الجميلة التي تنم عن ذوق راقٍ لقاطنيها في الزمن الجميل، مساحاتها الواسعة تمنح شعورًا محببًا بالبراح،

ومصاعدها القديمة الخشبية التي تمنحك الدفء، لماذا دائمًا نرى الماضي أروع من الحاضر؟ حتى إننا نرى هذا الحاضر جميلًا لمجرد مرور الزمن، هل هو الحنين؟ أم الألفة؟ ليس وقت الأسئلة الفلسفية الآن على كل حال.

في الدور الرابع وجدت لافتةً مضيئةً تحمل اسم المحامي الشهير مكتوبةً بخط الرقعة، كنت أفضِّل خط النسخ، يوحي أكثر بالجدية، كما أنه أكثر وضوحًا، في مدخل المكتب المؤثث على أحدث طراز جلست السكرتيرة الشابة إلى مكتب استقبال فخم تعلوه ساعة كبيرة تشير إلى تمام التاسعة، هي نفسها الفتاة التي زارتني في المحكمة صباح أمس، لكنها أكثر جمالًا وأناقة، ما أن لمحتني حتى نهضت ومدَّت يدها بالسلام، ورسمت على وجهها ابتسامةً واسعةً مرحِّبةً، تكلمت في هدوء جعل من الصعب أن أسمعها وأنا معتادة على ضوضاء المكتب والشارع والجيران، دلالها في الحديث زرع في قلبي بذرة متناهية الصغر من الغيرة الأنثوية، فهمت من ملامح وجهها المشرقة أن ما قالته ليس إلا عبارات للترحيب، قادتني إلى مكان الانتظار، واستأذنتني أن تغيب لدقيقتين، تتعامل معي بتهذيب مبالغ فيه، ولا أدرك السبب حتى الآن، اتساع المكان وفخامته أكّدا لديَّ شعورًا بالضآلة والفقر، بعد قليل عادت ومعها ساعٍ يرتدي قميصًا ناصع البياض جعلني أتساءل عن نوع مسحوق الغسيل الذي يحافظ على بياض الملابس لهذه الدرجة، فأنا لم أنجح أبدًا في الحفاظ على ملابس «محمد» بيضاء مثل هذا القميص، كان يحمل كوب عصير قدّمته لي الفتاة بنفسها، وهي تبتسم، وتخبرني بأن «الأستاذ» سعيد جدًا؛ لتلبيتي دعوته، وأنه سيستقبلني بعد قليل، لم تمضِ دقائق قليلة حتى وجدت الأستاذ بنفسه يقف أمامي ليرحِّب بي، يبدو أكثر هيبة مما يظهر على شاشات التلفاز أو صفحات الجرائد، لكن بالأناقة نفسها

التي يطل بها دومًا وإن بدا أنحف، عيناه ذئبيتان إذ يطل من نظراته لمعة ذكاء حاد، سار معي حتى باب مكتبه، وتبعني في الدخول، نظرت حولي بانبهار قبل أن أجلس إلى المقعد الذي أشار لي بالجلوس عليه، ثم جلس قبالتي وهو ما زال يرحِّب بي بودٍّ لم أشعر بأنه حقيقي، أشعل سيجارًا كالذي يظهر في الأفلام، وهو يسألني عن «إياد»، لم تضايقني رائحة السيجار كما كنت أتوقع، رغم حدتها وجدتني أحب رائحتها، أجبته باختصار أن «إياد» بخير، سألني مباشرة:

- كم تتكلف الجراحة؟

صمتُّ قليلًا، وأنا لا أفهم ما الذي يحدث، فأجاب بدلًا مني:

- إذا كنتِ تجدين حرجًا في الإجابة، فأنا أعرف تحديدًا المبلغ المطلوب، وسأدفعه كاملًا بالإضافة إلى مصروفات العلاج.

كنت على وشك أن أسأله عن السبب، لكن مشاعر الدهشة ألجمت لساني، فاستمر صمتي، بينما هو يسحب أنفاسًا متتالية من سيجاره الفاخر صنعت سحابة بيضاء صغيرة حول وجهه زادت من الغموض المحيط بالموقف، خاصة أني لم أنجح في رؤية نظراته لأفهم منها أي شيء، تناول بعض الأوراق من ملف قريب ومدَّ يده بها نحوي:

- لديكِ ملفُّ قضية يهمني، وكل ما هو مطلوب منك أن تحضري لي تقرير الطب الشرعي، وتضعي هذا التقرير بدلًا منه.

نهضت واقفةً وأنا أشعر بالفزع:

- ما الذي تقوله؟

ابتسم وهو يجذب يدي ليُجلسني من جديد، فسحبتها منه وأنا أشعر بالاشمئزاز، رفع الأوراق أمام وجهي:

- اطمئني، هذا التقرير سليم، وأختامه كلها حقيقة وتوقيعاته صحيحة، وحتى تواريخه مطابقة للتواريخ التقرير الأصلي.. ساعديني كي ننقذ بريئًا من السجن، وسنساعدك لتنقذي ابنك الوحيد.. «إياد».

ما أن لفظ اسم ابني حتى تسارعت نبضات قلبي، تذكرت كيف بدا ضعيفًا هشًا في قبضة المرض الشرسة حين مررت عليه اليوم وهو محاط بالأجهزة الطبية والحياة تنسحب منه في بطء أمام جبروت السرطان، تناولت التقرير، وفتحته لأنظر فيه، لم أشكّ لحظة في الأختام أو التوقيعات، وجدت شيئًا ما يدفعني للجلوس، فابتسم ابتسامة الواثق حين يتحقق نصره، ثم نهض ودار حول مكتبه، وأخرج من أحد أدراجه رزمةً ماليةً من فئة كبيرة، ووضعها أمامي:

- هذا جزء من تكاليف العملية، سأنتظرك يوم السبت القادم لأحصل على التقرير الأصلي، وتحصلي على الباقي.

نهض واقفًا ليُفهمني أن الحديث انتهى عند هذا الحد، اضطررتُ للنهوض، بينما تعلّق بصري بالنقود، وصورة «إياد» تحجبها عني وهو يتألم، دون أن أدري وجدتُ دموعي تنساب، ويدي تمتد إلى رزمة المال.

* * *

(إيمان)

للمرة الأولى في حياتي أتأمل نفسي في المرآة، تخلصت من خجلي وموروثات ثقافتنا التي تعيب ذلك الفعل، أطلت النظر إلى التفاصيل، لماذا تربينا ألا نعرف أجسادنا؟ أليست جزءًا من تكويننا؟ الإنسان ليس روحًا فقط، بل هو روح وجسد، كنت أتساءل هل ما زلت أنثى في نظر زوجي؟ رغم إنجابي لطفلين، لكنّ قوامي رشيق على حالته، باستثناء بعض الدهون؛ نتيجة الحمل والولادة، لكني لا أظنها منفِّرة إلى الحد الذي يُشعرني به «أمير» في كل لقاء، قوامي الممشوق يجذب الأنظار حتمًا في كل طريق حتى مع ارتدائي لملابس محتشمة، في الحقيقة شعرت بحبِّ جسدي للمرة الأولى في حياتي، لست امرأة جاهلة بفنون الحب أو عاجزة عن إرضاء زوجي، بل أزعم العكس، فتحتُ دولابه لأتأكد من أن ملابسه كالعادة نظيفة وجاهزة للاستخدام في أي وقت، احتضنتُ قميصه الأبيض الذي يحبه، ثم عطّرته بعطره المفضل، دُرتُ في كل مكان في البيت أحافظ على نظافته ورائحته العطرة، خاصة مكان جلسته المفضلة أمام التلفاز في السويعات القليلة التي يقضيها في المنزل، حتى الطفلان، أهتم بهما وبنظافتهما وصحتهما ودراستهما، «سما» دائمًا الأولى أو الثانية في الامتحانات، و«أحمد» أنهى العام الماضي الثالث على مدرسته في سنته الدراسية الأولى، إذن أين التقصير؟ أين الخطأ؟ ما الذي يدفعه كل ليلة للهرب من المنزل؟ عدتُ إلى حجرة نومي، وجلست على حافة سريري، أحاسب نفسي، هل حاولت بما يكفي لاستعادة زوجي؟ اكتشفت أنني كنت دائمة المحاولة، حريصة باستمرار على اجتذابه؛ لأني أحبه، وأريد أن أسعده، لكنه في كل مرة يفلت مني، حتى

إني تعلمت الدومينو والطاولة لأسليه إذا بقي معي في أي وقت، حين أخبرته سخر مني «وهل للطاولة معنى خارج ضجيج المقهى ومشاكسات الأصحاب؟».

وصلتني رسالة جديدة من «فارس» تعمَّدت ألا أفتحها، أغلقت الهاتف تمامًا، وخرجت لأشتري زهورًا حمراء، وضعتها على مائدة الطعام وقت الغداء، حين رآها «أمير» صرخ في وجهي:

- خرجتِ دون إذن مني؟ لو تكررت ستندمين.

دفع الطبق من أمامه بقوة، فانسكب ما به من طعام على مفرش السفرة الأبيض، ثم دخل إلى غرفة النوم، وأغلقها خلفه بالمفتاح ونام، بعد ساعتين خرج إلى المقهى دون كلمة واحدة، بعد خروجه هرولت إلى غرفتي بعيدًا عن أعين الطفلين لأغرق في البكاء.

* * *

(منى)

علامة زرقاء أخرى أسفل عيني يمنحني إياها «أشرف» ليلة أمس لمجرد أني طلبت منه أن يعود إلى العمل، لا يوجد قرش واحد بالمنزل، ولا كسرة خبز، بينما الطفل يبكي من الجوع، البطن الخاوية صوتها أعلى من صوت العقل، لم أحسب عواقب حديثي معه حول العمل للمرة الألف، لكني حصلت على الإجابة باللكمات والسباب، لقد تحملت الهوان جراء خدمة البيوت حين سُجن

ثلاثة أعوام بتهمة حيازة الترامادول، لكن لماذا أتحمله الآن؟ لماذا يزيد على قلبي عبء زوج متخاذل؟ لا يهتم إلا بالمخدرات وأصحاب جلسة المزاج، اصطحبت «محمود» إلى منزل عمَّته بحجة رغبته في قضاء يومين مع أبنائها، في الحقيقة ذهبت إليها لتطعمه لهذين اليومين، فلا أحتمل بكاءه من الجوع، ويضعفني أكثر شعوري بالعجز أمام دموعه، حين سألتني عن الكدمة تهربت من الإجابة، ولم تهتم في الواقع أن تحصل عليها، وإن كنت أظن أنها عرفت السبب الحقيقي، كان سؤالها لتأدية الواجب، فهمَت دون أن أوضح أني أحضرت الطفل ليأكل، ورغم عدم حبها لي أصرَّت في عطف واضح أن أنتظر حتى أتناول معهم الغداء، عدتُ بعد صلاة العشاء إلى المنزل، وروحي تتمزق حزنًا على صغيري، تركت «محمود» لديها بعد أن ارتاح قلبي قليلًا من أجله، لكن غصَّةً لم تفارق نفسي المنكسرة، لماذا يصل بي الحال أن أدور بابني على الناس من أجل إطعامه وأبوه على قيد الحياة، ولا يعجز عن كسب الرزق؟ لا يعجز، لكنه لا يرغب، يتكاسل، يلقي بالمسئولية على كاهلي الضعيف، كيف سيتربى هذا الولد؟ أوقن بأنه لن يستمر في الدراسة كثيرًا، سيدفع أبوه المال في الترامادول بدلًا من مصروفات المدرسة، ولا أقول الدروس، حين عبرت بوابة البيت كنت على وشك البكاء على حالي، ناداني صاحب المنزل وهو يجلس في صالة شقته بالدور الأرضي وبابها مفتوح، سألني عن زوجي «الأسطى أشرف» كما قال، أجبته وأنا أجد صعوبة في الحديث، فبالي مشغول على الصغير:

- إني عائدة من الخارج حالًا، ولا أدرى إن كان في الشقة أم لا؟

صمت قليلًا، ثم قال:

- اسمعي يا «أم محمود»، هذا ثالث شهر لا يدفع فيه الإيجار، وأنا أعلم جيدًا فيما ينفق نقوده.

كلماته كانت كالسكين تذبح كرامتي، أردت أن أقاطعه بكلمة تطيب خاطره أو تطلب منه بعض الصبر، لكنه رفع يده أمام وجهه يشير لي بالصمت، واستأنف حديثه:

- هذا شأنه، أنا لا أتدخل، لكن أخبريه أني لن أقبل أن رزق أطفالي يضيع في جلسات الحشيش والبرشام، إذا لم يدفع قبل نهاية الشهر على الأقل نصف المتأخرات سأخرِجه من البيت.

دخل شقته، وصفق الباب في وجهي بعنف، ماذا لو علم أن «أشرف» يضيع رزق طفله أيضًا في نفس الجلسات، فهل كان ليهتمَّ لرزق أطفالك أنت؟
صاحبني شعور بالخزي وأنا أصعد درجات السلم بصعوبة، وكأن روحي تصعد من جسدي، مقهورة من النصيب الذي ساقني لعصمة هذا الرجل، حاولت فتح باب الشقة بالمفتاح وجدته موصدًا من الداخل، وهذا يعني أن «أشرف» في الشقة، طرقت الباب عدة مرات، سمعت خطواته المتثاقلة تقترب ثم يتوقف، فهمت السبب فهمست، وأنا أُقرب فمي من الباب:

- افتح.. هذه أنا.

فتح الباب وعلامات النوم بادية عليه، تركني وعاد إلى الغرفة، غاظني أنه لم ينتبه أني عائدة وحدي دون ولده، تبعته وأنا أفتح أزرار العباءة لخلعها، فمتى أخلع همومي عني أيضًا؟ أخبرته بما فعلت مع أخته، هزّ رأسه وهمس بكلمة ما بدت لي أنه استحسن أن تركت «محمود» هناك، استلقى على السرير

بلا أدنى اهتمام، قررت أن أحرق دمه انتقامًا من لا مبالاته، فأخبرته بما قال صاحب البيت، ظهر الكدر على وجهه، فأداره بعيدًا، سمعت صوت طرقات على باب الشقة، أمرني أن أذهب لفتح الباب، اعترضت:

- ومن سيكون سوى أصحابك؟ اذهب وافتح لهم أنت.

رفع رأسه بوجه أحمر، ربما من النوم أو أغلب الظن من الغضب:

- هل سأفتح لهم وأنا هكذا؟ على الأقل سأغسل وجهي أولًا، هيا اذهبي.

ضربته في ظهره، وأنا أتناول العباءة لأرتديها، ولم أكد أخلعها، ذهبت نحو الباب، وفتحت المزلاج فقط، وكأني أفتح باب جهنم، تقهقرت حتى آخر الصالة، ثم صحت:

- تفضلوا.

أسرعت بالدخول إلى المطبخ؛ لتحضير الشاي، أشعلت البوتاجاز وعدت إلى الغرفة، وقلبي مقبوض بلا سبب، وجدته ما زال على السرير، فجذبته من ذراعه:

- هل ستظل نائمًا وهؤلاء الرجال في الصالة؟ قم هيا.

نهض إلى الحمام بعد أن تناول ملابس نظيفة، عدت إلى المطبخ وأطفأت البوتاجاز، فلن أخرج إليهم مهما حدث طالما لم يكن بينهم «أشرف»، يكفيني نظرات صاحبه الحيوان المرة الماضية.

مع صينية الشاي الرابعة، سمعت «أشرف» وهو يتناولها مني يسأل أحد أصدقائه ويدعى «جمال» أن يقرضه خمسمائة جنيه؛ ليدفع جزءًا من الإيجار، رحّب صديقه:

- تحت أمرك يا أخي.

وجدت نفسي أبتسم من الفرحة، رغم كراهيتي أن يأتي المال من أحدهم قرضًا بدلًا من أن يأتي من عرق زوجي، لكن لا بأس حتى لا نخسر شقتنا، لن نجد غيرها الآن بهذا الإيجار القليل، سقط قلبي حين سمعته يستطرد:

- لكن لدينا مشكلة صغيرة.

تعمَّدت أن أبقى على مقربة؛ كي أعرف ما هي المشكلة، وقلبي يدق قلقًا، سمعته يقول لـ«أشرف»:

- سأسافر فجر بعد غد إلى الصعيد؛ لقضاء مصلحة، وغدًا لن أحضر إلى هنا.

تنفست الصعداء، إنها مشكلة بسيطة، يمكن أن يمر عليه «أشرف» بمنزله غدًا ليحصل على النقود، عدت إلى غرفتي وأنا أشكر الله على فرجه القريب.

* * *

(٥)

بدأ الصمت يسيطر على عربة السيدات في المترو المتوقف، قلة التهوية تسببت في سريان الضعف بين الراكبات، من بين الصمت تعالى بكاء امرأة في بداية الثلاثينيات من عمرها ترتدي عباءة سوداء تفضح فقرها، كانت تبكي بحرقة مما دفع السيدة الجالسة لجوارها لتربت كتفها بحنان وهي تقول:

- لا تخافي يا ابنتي، سينقذنا الله.

باعدت الثلاثينية كتفها، وكأنها ترفض أن تلمسها المرأة المجاورة:

- أنا لا أخشى الموت يا سيدتي، بل أخشى الحياة؛ فالموت راحة والحياة شقاء.

تبسمت السيدة لها بوهن:

- الحياة رحلة شاقة دائمة يا ابنتي، لكنها تهون بصحبة الأحباب.

كفكفت الثلاثينية دمعها:

- إذن حياتي ليس بها ما يهوّن شقاءها.

* * *

(ناهد)

دقات قلبي تتسارع وصوتها يعلو، تصبب العرق من كل جسدي، كنت أراقب زملاء المكتب كل دقيقة؛ لأتأكد أنهم لا يروونني، أخرجت من حقيبتي التقرير الذي حصلت عليه من «الأستاذ»، ووضعته وسط زحام الأوراق على مكتبي، أخرجت مجموعة من الملفات من دولابي، من بينها الملف الموعود، سألتني إحدى الزميلات، وهي في طريقها إلى الحمام:

- ما هذا يا مدام «ناهد»؟

انتفضت وأنا أضع يدي على الأوراق، ثم أرفع رأسي نحوها وهي تستطرد بابتسامة:

- للمرة الأولى لا نرى مكتبك منظمًا، هل أصابتك عدوى فوضانا؟

جاهدتُ كي أرسم على وجهي ابتسامة؛ كي أطمئنّ قبل أن أطمئنها:

- لديّ عمل متراكم، سأنهيه سريعًا، وأعيد تنظيم المكتب.

دفنت وجهي بين الأوراق؛ حتى لا أمنحها فرصة لمزيد من الحديث، تظاهرتُ بالانهماك في العمل، حين خلا المكتب بانصراف الرجال إلى صلاة الظهر، والنساء إلى جلسة النميمة اليومية بالحمام، كان اضطرابي قد بلغ حده الأقصى، نظرت إلى التقرير، وتناولته، فتحته لأقرأه رغم عدم اهتمامي بمحتواه، وكأني أُسكِّن ضميري؛ حتى لا ينزعج، أعدته إلى مكانه، واتصلت بالممرضة التي تعتني بـ«إياد»، وكأني أبحث عن الدافع الذي يساعدني على

هذا الفعل، سألتها عنه وعن إمكانية زيارته اليوم، حاولت أن تمنحني بعض الطمأنينة، لكن صوتها لم يحمل إلى نفسي أي شعور إيجابي، هل لأنها اعتادت مصاحبة لحظات الموت؟ أم لأن حالته أسوأ مما تخبرني في الحقيقة، قالت إن الزيارة ما زالت ممنوعة، وطلبت مني أن أدعو له، سكنني القلق فجأة، فقررت أن أذهب إلى المستشفى؛ لأنظر إليه من خلف الزجاج مثل كل يوم، شيء ما جعلني أخشى أن تكون النظرات الأخيرة لهذا لم أنتظر موعد الانصراف، أعدت كل الملفات إلى الدولاب في عجل، حين أمسكت ملف قضية «الأستاذ» شعرت برجفة تجتاحني حتى إنه سقط من يدي، وتناثرت محتوياته، لملمت أوراقه في عجلة، ووضعته وسط الملفات، وكأني أهرب من النظر إليه فأخفيه، وضعت كل الأوراق في الدرج، وأغلقته بالمفتاح، وأنا أردد بهمس كل ما خطر ببالي من أدعية راجية الله أن يعفو عن ولدي ويشفيه.

في المستشفى لم أستطع أن أنظر إليه من خلف الزجاج لأكثر من دقيقة، انسحبت الطاقة من رجليَّ فلم تحملاني، انهرت على الأرض والدموع تنهمر مني بغزارة، كان بكاءً مختلط المشاعر؛ حزنًا على صغيري، وأنا لا أستطيع أن أفعل له أكثر من نظرات حزينة يقطعها زجاج العناية المركزة، قهرًا، من الفقر الذي يمنعني أن أذهب به إلى مستشفيات خالية من قوائم الانتظار الطويلة، فهمت الآن السبب وراء مقولة «وقوع البلاء ولا انتظاره»، فهو يزرع في نفوسنا أسوأ المخاوف والكوابيس، يقتل أرواحنا بالخوف من المصائب القادمة، ونحن نتوقع أكثرها سوادًا، ساعدتني الممرضة بالذهاب إلى الاستراحة، ماذا لو أن الموت كان أسرع مني، واختطفه قبل أن أدفع نقود الجراحة؟ بماذا ستنفعني أموال الأستاذ؟ هرولت إلى حجرة الطبيب؛ لأسأله

عن الوقت الذي نحتاجه، أخبرني بأن السرعة مطلوبة، وعدونا المشترك هو «الانتظار».

* * *

(إيمان)

راسلني «فارس» يسألني عن سر اختفائي الأيام الثلاثة الماضية، وما سبب عدم ردِّي على رسائله؟ ختم رسالته بجملة جعلتني أبكي: «كل ما أطلبه أن أطمئنَّ عليكِ»، بكيت لأني أخيرًا شعرت بأن هناك من يهتم لأمري، من يسأل عني، لا يطلب سوى الاطمئنان عليّ، كتبت ردًا بأصابع مرتجفة، وجدت نفسي دون أن أدري أحكي له كل شيء، أفتح له قلبي للمرة الثانية، بلا محاذير، ولا حواجز، كتبت كثيرًا، وهو امتلك من الذكاء ما جعله يتركني لمشاعر الفضفضة الحرة، تدخَّل فقط ببعض أسئلة للاستيضاح، وأجبته بصراحة، وكأني أعرفه منذ زمن بعيد، استطاع بحنكة أن يخطو بي بعيدًا عن مشاعر الحزن والوحدة، تمكَّن بهدوء من إعادة الابتسامة إلى وجهي، سألني عن طفولتي ومراهقتي وسنوات الجامعة، على مدار أيام أرسل لي عددًا من الأغنيات التي لم أكن أعرفها من قبل، حالة حلوة من الموسيقى منحتني البهجة، أعادت لي حيويتي وانطلاقي، خلال أسبوع أصبح حديثنا يوميًا لا ينقطع، أغلب وقت الصباح حين يكون الطفلان في المدرسة، وجزءًا من الليل بعد أن يناما وقبل عودة «أمير»، كانت الأيام العشرة الماضية هي أطول فترة خصام بيني وبين «أمير»، وللمرة الأولى لم أحاول إرضاءه أو استعطافه، حتى إني كنت أقضي أغلب وقتي بالمطبخ حين يكون في المنزل، وأتعمَّد

النوم قبل عودته من جلسة المقهى اليومية، لم يكن معتادًا مصالحتي، لهذا كنت أرى الحيرة في عينيه وهو لا يدري ما الذي يجب فعله، خلال الأيام الماضية كنت أكثر تفانيًا في خدمة المنزل والولدين؛ حتى لا أدع له مجالًا للعراك من جديد، أكثر ما أثار حيرتي أني لم أشعر بتأنيب الضمير؛ لأني أتحدث إلى رجل، بينما أنا على ذمة رجل آخر، وأدهشني أني فقدت لهفتي على «أمير»، فوجئت به يوم الجمعة بعد أن عاد من الصلاة يطلب من الولدين أن يتجهزا؛ لأنه سيصحبهما للتنزُّه، فرح الصغيران فرحة عارمة، تكاد تكون هذه هي المرة الأولى التي يطلب هو أن يخرج معهما، هرولا للتجهُّز قبل أن يغيِّر رأيه، نظر نحوي بتعجب وهو يراني جالسة أمام التلفاز بلا مبالاة، فسألني:

- ألن تتجهزي؟

قلبتُ قنوات التلفاز، وكأني أقلب الأفكار في رأسي قبل أن أجيب بشيء من الحدة:

- لا.

أدركت بعدها أني ربما أساهم في إشعال النيران، فعضضت شفتي ندمًا، لكنه لحسن الحظ لم يلحظ، التفتُّ إلى التلفاز في محاولة مني كي أبدو ثابتة، سألني عن السبب، فشرحت له بهدوء أن الطفلين محرومان من صحبته منذ فترة طويلة جدًا، ووجودي ربما لا يمنحهم الاستغراق في الشعور بصحبته، سيكون من الجيد للأطفال أن تكونوا وحدكم، نهضت متجهةً إلى حجرة الصغيرين ومشاعر الاندهاش تسيطر عليّ، كيف امتلكتُ شجاعة مخالفته؟

ابتسمت وأنا على باب الحجرة، وشرحتُ لـ«سما» و«أحمد» ما قلتُه لـ«أمير» بالخارج، كان إقناع «سما» أسهل كثيرًا من «أحمد»، لكن في النهاية ودَّعتهما عند باب المنزل، وما زالت نظرات الحيرة تسكن وجه «أمير»، بعد أن أغلقت الباب وبلا قصد سابق وجدت أني أدور حول نفسي وأصفِّق وأغنِّي، إنها المرة الأولى التي آخذ فيها قرارًا وأتمسك بتنفيذه، دخلت الحمام وملأت حوض الاستحمام، رششت الماء بالعطور، وصنعت لنفسي فنجان قهوة، ونمت في الماء لساعة، تعمَّدت خلال هذا الوقت أن أطرد أي أفكار من رأسي، شربت قهوتي على صوت «فيروز»، تعطرت وارتديت ملابسي، وخرجت إلى حجرتي، وأنا أشعر أني غسلت كل همومي مع جسدي، نظَّفت قلبي مما يؤلمه، حين عادوا من الخارج كانوا سعداء جميعًا، وتعلو وجوههم الفرحة، ظل الأطفال يقصُّون تفاصيل النزهة وهو جالس بيننا يضحك، شعرت بالألفة والسعادة، بعد قليل نهض «أمير» متجهًا إلى غرفة النوم:

- سأنام ساعتين قبل أن أذهب إلى المقهى.

شعرتُ بوخزة في قلبي لينزف كل مشاعر الفرحة التي سكنته اليوم.

* * *

(منى)

اقتربت الشمس من لحظة الموت غروبًا، وما زال أشرف نائمًا؛ جراء سهرة أمس التي امتدت -كالعادة- حتى ما بعد الفجر، قررت أن أوقظه من نومه؛ كي يذهب إلى صديقه الذي وافق على إقراضنا المال، حضّرت له كوب الشاي

الثقيل ذي ملاعق السكر الأربعة كما يحبه، وأخذت ألاطفه حتى استيقظ، وقام إلى الحمام، بعد أن خرج وجلس لشرب الشاي سألته في هدوء:

- متى تذهب إلى صديقك لإحضار المال؟

صمت قليلًا، ثم سألني عن التوقيت، كنا نقترب من السابعة مساءً، نظر عبر النافذة وكان الظلام قد حلَّ بالفعل، قمت إلى الدولاب، وأخرجت له ملابس نظيفة، فوجئت به يخبرني أنه لن يستطيع الذهاب، شعرتُ بالدماء تنسحب من جسدي؛ حتى إني ترنَّحت في مكاني، فاضطررت للاستناد على السرير:

- ما الذي تقوله يا «أشرف»؟ صاحب البيت في انتظار الإيجار.. ابنك وتركته عند عمته ليأكل.. وأنت لا تعمل.. وأنا لم أحصل على عمل منذ فترة، كيف سندبِّر النقود إذا لم تذهب لصاحبك؟

وجدت نفسي ألطم وجهي بكفيّ وأنا أضيف:

- هل تريد أن تصيبني بالشلل يا رجل؟ لماذا لن تذهب؟

ترك كوب الشاي من يده، وهو ينظر إليّ شزرًا:

- دعي ليلتك تمرُّ على خير، وضعي لسانك داخل فمك حتى أُفهمك.

وضعتُ كفي على فمي، وانتظرته أن يخبرني:

- تعلمين أن عليَّ سابقة، وبطاقتي الشخصية منتهية، إذا سرتُ في الشارع الآن ربما استوقفني كمين شرطة، أو مخبر، ساعتها سيتم القبض عليّ، وتحرير محضر تحرٍّ، هل تفرحين ساعتها؟

أحطتُ رأسي بيدي، وأنا أترنح حرفيًا:

- وما العمل الآن؟

تنحنح ونهض من الأرض ليجلس بجواري على السرير، ويلفّ ذراعه على كتفي، ثم يقبّل رأسي:

- البركة فيك يا جميل.

نظرتُ له وعيناي تكادان تقفزان من محجريهما:

- نهارك أسود.. هل ترسلني إلى منزل رجل غريب ليلًا؟

حاول أن يضمَّني إليه مرة أخرى، لكني أبعدته بعنف وهو يقول:

- هذا ليس غريبًا.. إنه «جمال».. صديقي، أي أنه سيعاملك كأخت له، لا تخشي شيئًا.

نهضتُ من جواره وأنا غير مصدِّقة ما أسمع، أين حمية الرجال وغيرتهم على نسائهم؟ دخلت الحمام، وأغلقت على نفسي من الداخل، وجلست أبكي حظي، ماذا أفعل يا ربي؟ «محمود» لن يبقى للأبد عند عمته، وصاحب البيت لن يصبر طويلًا على نقوده، حتى أنا لن أتحمَّل الجوع كثيرًا، لم آكل شيئًا منذ أمس حين أصرَّت أخته أن تطعمني، طرق الباب وهو يسألني متى أخرج، لم أجبه، نهضت وغسلت وجهي وخرجت، وجدته ينتظر على الباب، ويمسك بيده عشرة جنيهات وورقة:

- آخر نقود في جيبي؛ لتركبي المترو، وهذه الورقة بها العنوان.

جذبتهما من يده بغيظ، إذن معه نقود ويخبئها ابن الـ... لا داعي للسباب ولو بيني وبين نفسي، نظرت إلى الورقة لأقرأ العنوان، ثم دخلت إلى حجرتي لأرتدي العباءة.

* * *

(٦)

وسط ظلام النفق الدامس، وقلة الهواء داخل عربة السيدات بالمترو المتوقف، ساد صمت مطبق لا يزاحمه حتى الهمس، الجميع أيقنَّ أن توفير الجهد مطلوب في هذه اللحظات بعد أن أخبرتهن إحدى الراكبات أن الصمت والهدوء سيوفر لهن الأكسجين لفترة أطول، انشغلت كل راكبة بحالها، وهن يدركن أن الموت أصبح أقرب مما يتخيلن، يقال إن الإنسان حين يدرك أن لحظة الرحيل قد دنت يتخلص من حماقاته، وضعفه، وجبنه، يصبح أكثر حكمةً واتزانًا، وهذا من سخرية الحياة، فلو أنه عاش حياته كلها بنفس مشاعر اللحظات الأخيرة لتحققت الجنة على الأرض فعلًا لا مجازًا، تباينت المشاعر في صدورهن بين الندم على ما مضى أو الخوف مما بعد الموت، أملٌ في معجزة قد تحدث في اللحظات الأخيرة، أو تمسك بالحياة، وبعضهن استسلمن تمامًا في يأس.

كسر هذا الصمت صوت طرقات قبضة أحد عمال الصيانة على باب العربة، تحركن جميعًا نحو الجانب الذي أتى منه العامل، تكلمن جميعًا في نفس اللحظة راجين منه المساعدة، حاول العامل أن يدفع عتلة حديدية بين الباب ربما يتمكّن من فتحه، في المقابل حاولت بعضهن مساعدته من الداخل، استمرَّت المحاولات لعدة دقائق، لكنها بائت بالفشل في النهاية، أشار لهم العامل أنه سيذهب لإحضار المساعدة والعودة سريعًا.

الأمل، هو السحر الذي يعيد الحياة مرة أخرى للنفوس قبل انسحابها في اللحظات الأخيرة، هو الحبل الذي يربطنا بالحياة بعد أن تكل أيدينا من

التمسك بها، وقد مثل هذا العامل الأمل لكل راكبات عربة السيدات.

* * *

(إيمان)

تتأرجح مشاعري بين السعادة وتأنيب الضمير، سعادتي بأني ما زلتُ أمثِّل لأحدهم حلمًا يتمنى تحقيقه بالوصول إليه، وتأنيب الضمير؛ لأن سعادتي هذه مصدرها رسالة من «فارس» يخبرني فيها بأنه معجب بي، وأصبح لا يستطيع الاستغناء عن وجودي، كيف أفرح بعلاقتنا وأنا زوجةٌ وأمٌّ؟ لماذا سمحتُ لنفسي بالانجراف نحو هذه الهاوية؟ في الصباح وأنا أغسل وجهي في الحمام لم أطِق أن أنظر إلى المرآة، حتى إني لم أستغرق الوقت المعتاد، وخرجت مسرعة، وكأني أهرب من هذه المرأة التي تطل عليّ، هل جُنِنتُ؟ لقد رأيتُ في عينيها نظرات لائمة، أشعرتني ملامحها بأنها تكرهني، أسوأ ما في الأمر أني أعرف سبب كراهيتها ولومها، أو لأكون صادقة، كراهيتي لنفسي ولومي لي، إنه «فارس» ورسائله وحديثنا، ولماذا يكون «فارس» السبب وحده؟ لماذا لا يتحمَّل «أمير» جزءًا من اللوم؟ ألم يكن أحد الأسباب التي دفعتني للوصول إلى هذه اللحظة؟ إهماله لي هو ما قادني لكراهية نفسي، لكن.. هل يتحملان وحدهما وِزْر ما أنا فيه الآن؟ أم أتحمَّل معهما جزءًا منه؟ وعلى من يقع القدر الأكبر من اللوم؟ زوج أهملني؟ أم صديق يملأ الفراغ المتروك؟ أم أنا؟ أنا.

خرج «أمير» إلى عمله، وبعدها بقليل وصلت حافلة المدرسة فأنزلت الطفلين، لاحظت مشرفة الحافلة أني على غير المعتاد، فسألتني عن السبب، اعتذرتُ لها متعللة ببعض المرض، وأوصيتها بالصغيرين، بعد أن خرجت من المصعد، فتحت باب الشقة، ووقفت قليلًا، وكأن عائقًا يمنعني من الدخول، دلفت إلى الداخل بخطوات مترددة كغريبة عن هذا المنزل، أغلقتُ الباب، واستندت بظهري عليه، وجلست أرضًا، أخذتني الذكريات لأيامي الأولى في هذه الشقة، كانت السعادة شريكتنا فيها، الحب أيضًا سكن معنا وإلينا، كنا نتحدث معًا بلا انقطاع منذ عودته من العمل وحتى وقت النوم، نتشارك أشياء أكثر من أن أتذكرها، لكنّ الصمت تسلل إلينا ببطء، وهيمن الملل على حياتنا؛ بسبب الروتين الذي لا يتغير، نفس الأشياء التي كنا نفعلها معًا بسعادة أصبح تكرارها أمرًا عاديًا، ثم أمرًا مملًا، ثم أصبحت سخيفة، وبعد ذلك توقفت، وبالتدريج بدأ «أمير» يعتاد الذهاب إلى المقهى، كنت أتركه كي يشعر بالحرية، خاصة وأنه كان يعود بمزاج رائق وابتسامة على وجهه، وينعكس هذا على تعامله معي، لم أنتبه في حينها لهذه التغيرات، فقد انصرف اهتمامي إلى طفلتنا «سما» ومن بعدها «أحمد»، لماذا لم ننتبه معًا إلى الثقوب التي انتشرت في قاع سفينتنا حتى أوشكت على الغرق؟

* * *

(منى)

وصلت أخيرًا إلى العنوان المدوَّن بالورقة، بيت قديم في حي شعبي يقبع في وسط حارة ضيقة تصيب القلب بالانقباض، لا يوجد نورٌ بالحارة، إلا ما

يتسرب من النوافذ المتهالكة، خشيتُ أن أصادف أحد المتسكعين بالظلمات لتدخين الحشيش أو تعاطي الترامادول، لا يمكن أن آمن ألا يتعرض لي أحدهم بالمضايقة، لهذا تلفّتُّ حولي كثيرًا، وكأنني مجرم يخشى من يطارده، صعدتُ درجات السلم المتهالكة، وأنا أتمسك بالدرابزين الحديدي الصدئ، طرقتُ الباب وتراجعتُ عدة خطوات للوراء، بعد قليل فتح «جمال» وهو يلوك بعض الطعام في فمه، ويرتدي فانلة حمالات وشورتًا منزليًا، أدرتُ وجهي بعيدًا، وقلبي يدقُّ بعنف من الهلع، فقد كان «جمال» هو نفسه صديق زوجي الذي تلصَّص عليّ في منزلنا، فتح الباب على مصراعيه وهو يبتلع بقية الطعام:

- لا مؤاخذة يا «أم محمود»، تفضلي.. تفضلي.

نظرت عبر السلم لعل أحدهم يكون صاعدًا أو هابطًا يمنحني بعض الأمان، فلم أجد أحدًا:

- اعذرني لا أستطيع الدخول، أرسلني «أشرف» من أجل المال الذي اتفق عليه معك أمس.

أفسح الطريق، وهو يشير بيده إلى الداخل:

- لا يصحُّ أن تقفي هكذا على السلم، تفضلي.

هززتُ رأسي نفيًا:

- معذرة، فأنا على عجلة من أمري.

- أقسمتُ عليكِ أن تدخلي، لا يصحُّ أن تأتي إلى هنا وتقفي على السلم، على الأقل تفضلي حتى أحضر النقود.

لم أجد كلمات أخرى أتفوَّه بها، انتبه أنه يقف بملابسه الداخلية، فنظر إلى نفسه، وابتسم:

- أعتذر عن استقبالي لكِ بهذه الملابس، أرجوكِ تفضلي، على الأقل حتى أغيّر ملابسي، وننزل معًا لإحضار النقود.

خرجت الكلمات من فمي بصعوبة، وبصوت خافت:

- أليست النقود معك الآن؟

كاد أن يجذبني من يدي لأدخل، فتراجعت خطوة للوراء، فبادرني بقوله:

- يا «أم محمود» أنتِ أختي، أرجوكِ تفضلي إلى الداخل؛ حتى لا يراك أحد من الجيران، فيظن الظنون.

أعدتُ النظر إلى السلم من جديد، وكان الصمت يحتل الفراغ، خطوت باتجاه الباب فأفسح الطريق، في مواجهة الباب كانت توجد أريكة من النوع القديم، مما نسميها (كنبة إسطنبولي) جلست عليها، رأيته يردّ الباب، فوقفت فورًا وقلبي يكاد يخرج من فمي من الهلع، لاحظ ذلك فابتسم:

- لا تخافي، لن أغلق الباب، أنا فقط أواربه؛ حتى لا يراكِ أحد يمر من أمام باب الشقة، كل من في البيت يعلم أني عازب، ووجودك قد يطلق الألسنة.

جلست وأنا أتلفَّت حولي، حوائط البيت كالحة، لا يبدو لونها الأصلي واضحًا، يوجد له أعلى التلفاز صورة قديمة في برواز ذهبي خسر أغلب لونه، وظهر الخشب القديم، على الأرض وُضِعت (طبلية) عليها بعض الطعام البسيط عبارة عن عدة بيضات مسلوقة وقطعة جبن أبيض وبقية من لانشون وأرغفة خبز، أشار نحو الطعام:

- بسم اللّٰه.

ربت صدري، وأنا أنظر في الأرض:

- أشكرك، لا أستطيع.

مدَّ يده إلى أحد الأرغفة، ووضع عليها بيضة وقطعة جبن، وناولني إياها:

- نحن لسنا أغرابًا، نحن أهل، وجبر الزاد واجب على أبناء البلد.

أصررتُ على الرفض، فاقترب مني مادًا يده:

- يقول أهل المناطق الشعبية أمثالنا إن رفض الطعام في منزل المضيف إهانة له.

أخيرًا أتتني الشجاعة كي أرفع رأسي نحوه، لكني من داخلي كنت أرتجف، وأخشى أن يبدو هذا الارتجاف له:

- صدقني لست جائعة، أشكرك، لكني أرجوك أن تسرع، فلا أحب أن أتأخر.

جلس على نفس الكنبة، ولكن على الطرف البعيد مني، وهو يعيد الطعام إلى مكانه، ثم فرد ذراعه ليضعه على مسند الظهر، ابتعدت بما تسمح به المساحة الباقية على يساري، وعدت أنظر إلى الأرض المفروشة بحصيرة تآكلت أطرافها:

- أخبريني يا «أم محمود»، لماذا لا يعمل «الأسطى أشرف»؟

مرَّت ثوانٍ أستوعب فيها أنه يجلس بقربي بملابسه الداخلية يتبادل معي الحوار، أجبته بصوت جافٍّ:

- بسبب مشكلته مع صاحب الورشة كما تعلم.

شعرت به يقترب قليلًا، فانكمشت على نفسي، وأنا أسترق النظر بجانب عيني نحوه؛ حتى أحافظ على مسافة آمنة بيننا:

- كيف إذن سيسدد ديني؟

هززتُ رأسي:

- لا أعلم، يمكنك أن تسأله.

- حقًا أنتِ لا تعلمين، لكن يمكنك مساعدته في السداد.

شعرت بيده تلمس ظهري، فانتفضت من مكاني، وأسرعت في اتجاه الباب، سبقني وسد الباب بجسده، واستند عليه فأغلقه:

- ماذا بكِ؟ نحن نتحدث.

نظرت نحوه بعين جاحظة، وصحت بصوت عالٍ:

- أخرجني يا ابن الكلب قبل أن ألمَّ عليك الجيران.

- طاوعيني وسأسامح «أشرف» في هذه النقود، بل وسأمنحك مائة جنيه لكِ لن أخبره بها.

اقترب مني، فتراجعت خطوات إلى الوراء أسقطتني على الأريكة، فأسرع نحوي ليلفّ ذراعيه حول جسدي، ويحاول تقبيلي، رفعتُ ركبتي لأضربه بكل غلٍّ فأصابت ضربتي بطنه، تركني ليتألم واضعًا يديه على بطنه، فهرولت نحو الباب، فتحته وغادرت مسرعة أكاد أسقط على السلم، والغضب يعميني عن الطريق، حتى إني هرولت في الحارة في الاتجاه الخاطئ بضع خطوات نحو نهايتها المسدودة، نظرت نحو مدخل البيت؛ خشية أن يلاحقني وأنا أجري باتجاه الشارع الرئيسي، عند مدخل الحارة لمحت (توك توك) يمرُّ، فناديته، ركبت فورًا، وطلبت منه أن يوصلني إلى آخر الشارع بسرعة دون أن أملك ما يكفي من المال لأدفع الأجرة.

* * *

(ناهد)

بعد أن أخبرني الطبيب أن الانتظار هو عدونا المشترك، مررتُ على الحسابات بالمستشفى، سألتهم إذا ما دفعت جزءًا من تكاليف العملية، وأتعهّد بسداد الباقي خلال أسبوع، هل يحجزون موعدًا للجراحة، استفسر المحاسب عن

المبلغ الذي أنوي دفعه كمقدم، أخبرته بقيمة الأموال التي منحني إياها «الأستاذ»، أجرى بعض حساباته، وعيني تتعلق بحركة يده ونظراته لجهاز الحاسب الآلي، بعد قليل أخبرني أنهم كي يبدأوا في الإجراءات المطلوبة يجب أن أسدد نصف تكاليف الجراحة كحد أدنى، وبشرط أن أسدد النصف الباقي قبل موعد إجرائها بأربع وعشرين ساعة على الأقل، وإلا سيتم إلغاء كل الترتيبات وخصم جزء من المبلغ المدفوع؛ نظير ما تم من إجراءات، شعرت أن حظي يُخرج لي لسانه ويهزأ بي، كلام المحاسب يعني أني يجب أن أسرع في استبدال التقارير غدًا، والذهاب إلى مكتب «الأستاذ»؛ لتسلّم باقي المبلغ، أخبرت المحاسب أن المبلغ بالكامل سيكون جاهزًا بعد غد، انصرفت من مكتبه وكلي تصميم على تنفيذ فكرتي، أمام باب المستشفى أخرجت هاتفي واتصلت بـ«محمد»:

- أين أنت؟

جاءني صوته فزعًا:

هل حدث لـ«إياد» شيء؟ هل...

لم أمنحه الفرصة لاستكمال سؤاله، وقاطعته بغلظة:

- بعد الشر.

سمعت صوته يتنهد مطمئنًا قبل أن يقول:

- خير؟ ما الأمر؟

- أرغب في الحديث معك حول أمر مهم، لقد وجدت طريقة لتدبير نقود الجراحة.

سألني بلهفة:

- كيف؟ ومن أين لكِ بهذا المبلغ الضخم؟

لا أدري لماذا انسابت دموعي، وتهدّج صوتي:

- قابلني في المنزل بعد ساعة، وسأشرح لك تفاصيل الأمر.

أغلقتُ الهاتف قبل أن يصلني ردُّه، وكأني لا أقوى على إخباره، وأحاول تأجيل المواجهة الحتمية، لا أدري كيف سيكون ردُّ فعله على ما سأقول؟ ارتجفت يدي وأنا أعيد الهاتف إلى حقيبتي، نظرت خلفي إلى مبنى المستشفى، تحديدًا إلى نوافذ طابق العناية المركَّزة، وضعت يدي على فمي أمنع شهقة بكاء كادت تفلت مني، أشرت بكفي علامة السلام على ولدي، وأنا أهمس لنفسي: «لا تقلق يا صغيري، ستُجري الجراحة وتعود إلى حضني أقرب مما تتخيل، لا تجزع لوحدتك؛ فلن أفارقك بمجرد خروجك من العمليات وحتى عودتك إلى البيت»، أسرعت الخطى نحو الطريق العام لأذهب إلى «محمد»؛ لحسم الموقف معه.

* * *

(٧)

مع سريان الأمل في عروق الراكبات بظهور عامل الصيانة عادت الحياة تدبُّ فيهن من جديد، لكن القلق ما زال يحكم نفوسهن، سألت إحداهن:

- ماذا لو تأخر العامل، أو لم يعد لإنقاذنا؟

نظرت لها المرأة التي ترتدي الرمادي والهلع يسكن وجهها:

- «فال الله ولا فالك» يا مدام، سيعود إن شاء الله.

أسندت رأسها على كفها وغمغمت:

- يجب أن يعود، لا يمكن أن أموت الآن، لا يمكن أن أموت قبل أن أطمئن.

لم تنتبه أي من الراكبات إلى دموعها التي تسيل، ولا إلى يدها التي بدأت في الارتعاش، بينما اليد الأخرى تقبض بقوة على حقيبة يدها.

* * *

(منى)

عدتُ إلى المنزل بأقدام مرتجفة من الخوف، أتلفَّت حولي كل عدة ثوانٍ، يغزو وجهي العرق وتتسارع أنفاسي وكأنني عدوت لأيام طوال بشكل متواصل، حلقي جافٌّ وجسدي بارد، تسحبت على درجات السلم، وأنا أتمنى

ألا أصادف صاحب البيت، حتى لا يسأل عن الإيجار مرة أخرى، جلست أمام باب الشقة، وأسندت ظهري إلى الحائط المجاور، أزحت الطرحة قليلًا عن رأسي، وجففت بها عرقي، التقطتُ أنفاسي، ثم طرقت الباب بيد واهنة، فتح «أشرف» الباب خلال ثوانٍ، فوجئت به يجذبني من شعري إلى الداخل، ويصفق الباب بشدة، لم أقوَ على الصراخ حين ركلني في بطني وأنا جالسة على الأرض، وهو يسألني:

- أين كنتِ طوال هذا الوقت يا فاجرة؟

رفعتُ يدي أحمي وجهي، وأنا أتوقع منه ضربات أخرى، لكنه جلس على الأريكة، ومال بجذعه نحو وجهي، وقال وهو يجزُّ على أسنانه بعنف:

- اتصل بي «جمال» يسألني متى أحضر للحصول على النقود، وأخبرته أنني أرسلتك إليه، فوجئت به يخبرني بأنكِ لم تحضري، تحدثنا ثلاث مرات بعدها، وفي كل مرة يؤكد عدم حضورك.. أين ذهبتِ إذن؟

صعقتني المفاجأة، وعقدت لساني بشدة، بينما أجبرني القلم الذي صفعه لي «أشرف» على النطق:

- ذهبت.. أقسم بالله ذهبت إليه و...

لم يمنحني فرصة استكمال الحديث، وهو يختطف «البوك» من يدي يفتحه:

- أين المال إذن؟ ولماذا قال إنكِ لم تذهبي؟

ارتفعت نبضات قلبي إلى الحد الذي جعلني أسمعها بوضوح تطنُّ في أذني، نظرت له بخوف وهو يفتش عن النقود، ابتلعت ريقي بصعوبة:

- «جمال»....

نظر إليّ، فابتلعت الباقي من كلماتي، ألقى «البوك» بعيدًا، وانتظر أن أكمل، لملمت شجاعتي:

- «جمال» حاول التحرش بي مقابل عدم استرداد نقوده، وحين رفضتُ بالتأكيد خاف أني سأخبرك، ولهذا استبق الأمر، واتصل بك يدَّعي عدم ذهابي.

توقعت كل ردود الفعل التي قد تصدر منه، توقعت أن يضربني كالعادة رغم أني لم أخطئ، أن يثور ويقرر قتله، أن يسارع بمغادرة المنزل ذاهبًا إليه ليتشاجر معه، توقعت على الأقل أن يبدو على وجهه الغضب... لكنه صمت، لم يتفوَّه بكلمة، لم تظهر على وجهه أي علامات لغضب أو حنق أو ضيق، كل ما فعله أن استند إلى ظهر الأريكة وصمت.

صمته زادني رعبًا، لكنه في الوقت نفسه أصابني بالحيرة، انتظرت قليلًا، ثم ذهبت إلى الحمام، غسلتُ وجهي، وشربت بعض الماء، فزعت حين استدرت لأخرج من الحمام، ووجدته يسدُّ الباب، تراجعت خطوةً للوراء في توجُّس، سألني بجفاء:

- ما الذي حدث بالضبط؟

* * *

(ناهد)

جلس «محمد» أمامي ساندًا مرفقيه على فخذيه مطأطئ الرأس، لا يتحدث، لا يصدر منه إلا صوت تنفسه المتسارع بغير انتظام، حركة إصبعيه الإبهام المتوترين اللذين يدوران حول بعضهما بلا توقف -حتى ظننت أنهما لن يتوقفا على الإطلاق- أصابتني بالقلق، حين رفع رأسه رأيت عينيه مغرورقتين بالدموع، فانخلع قلبي، دائمًا دموع الرجل تمثل الحد الأقصى من العجز، ذروة القهر، وقمة انفلات المشاعر، لقد تربَّينا على أن الرجال ممنوع عليهم البكاء، ممنوع عليهم إظهار الضعف، أو الانهيار، لهذا كانت دموعه سببًا كافيًا لغصَّة قلبي، قمت لأحاول احتواء رأسه في حضني، لكنه ابتعد عني، وأدار وجهه للجهة الأخرى، تعجَّبت أن رفضني بهذه الطريقة، في العادة هو حنون ورحيم معي حتى في أقصى درجات حزنه أو غضبه، «محمد» أجاد دومًا أن يحتويني، وأفشل الآن أن أحتويه، ربتُ على ظهره وأنا أشعر تمامًا بما يحتل أفكاره ويعكر خاطره، من المؤكد أنه يرغب أن يكون هو مصدر النقود التي تعالج ابننا، ألا يشعر أنه كرجل عجز عن توفير المال، بينما نجحت زوجته في ذلك، أعلم أن هذا قد يهين كرامة كثير من الرجال، نهض أخيرًا، ووقف في مواجهتي وأحاط كتفيّ بيديه:

- اسمعي يا «ناهد»، لقد حرصت طوال عمري ألا تصل يدي إلى حرام، دعوتُ الله دومًا ألا أطعم ابننا من حرام، وبالتأكيد لن أسمح أن يتم إجراء الجراحة لولدي من أموال رشوة، كيف أترك «إياد» بين يدي الله وقد ارتكبنا مثل هذه الخطيئة.

لم يتمهَّل ليسمع دفاعي، أسرع بالخروج من باب الشقة، لكنه توقف قبل أن يغلق الباب، واستدار نحوي رافعًا سبابته:

- إياكِ يا «ناهد».

جلستُ على المقعد الذي غادره قبل قليل، أطلقت آهة عالية طويلة، وأنا أضع يدي على قلبي لعلي أطلق منه آلامه على ولدي وزوجي، كم هي مؤلمة هذه الحياة وظالمة، دائمًا تضعنا أمام اختبارات قاسية، وخيارات مستحيلة، ثم تطلب منا أفعالًا لا نقدر عليها، وفي النهاية تضحك علينا حين نقع في أحد أفخاخها المنصوبة لنا بإحكام.

* * *

(إيمان)

عاد «أمير» بعد الواحدة صباحًا من جلسة المقهى، وجدني جالسةً في حجرة المعيشة، ألقى التحية، لم نكن قد تصالحنا بعدُ منذ اشتريت له الزهور، فلم أردَّ عليه، جلس بجواري، توقَّعت أن يسأل عن طعام، لكنه نظر لي مطولًا، عيناه تملؤها الكلمات، لأول مرة منذ سنوات لا أستطيع قراءة نظراته، ظل ينظر إليَّ محاولًا أن يجد ما يقول، لكن يبدو أنه فشل، نهض متجهًا إلى حجرة النوم، نظرت إليه بإشفاق وهو يبتعد، نعم كنت مشفقةً عليه، فتلك هي المرة الأولى التي يجد فيها نفسه مضطرًا لمصالحتي بعد أن اعتاد أن أصالحه أنا حتى لو كان خطؤه هو سبب خصامنا، لم يطاوعني قلبي كثيرًا، فلحقت به، كان يجلس على السرير بعد أن ارتدى ثياب النوم، وقفتُ على باب الغرفة:

- هل أعدُّ لك الطعام؟

فاجأني صمته، وأوجعني أن منحني ظهره لينام، شعرت وكأنه يطعنني مجددًا في قلبي؛ كي أنزف ألمًا من نوع مختلف هذه المرة، ألم الشعور بالظلم، كيف يعاقبني رغم محاولتي أن أسعده؟ أغلقت عليه الباب، وعُدْت إلى حجرة المعيشة، فتحتُ التلفاز، وأخذت أنظر إلى الشاشة دون أن أعي ما الذي يدور من أحداث الفيلم المعروض، وصلتني رسالة جديدة من «فارس»، أمسكت الهاتف؛ لأجد أنه يتساءل عن سر تجاهلي له الأيام الماضية، ترددت قليلًا، لكن شيئًا ما دفعني دفعًا لأردَّ عليه هذه المرة: «قلبي موجوع.. اعذرني لا قدرة لي على الحديث الآن»، جاء رده أسرع مما توقعت: «سأحترم رغبتك في الصمت، لكن حين تشعرين برغبة في الحديث سأكون موجودًا لأجلك»، «أمير» ليس موجودًا لأجلي، هو موجود لأجل العمل وأصدقاء المقهى الذين أصبحوا يعلمون عنه أكثر مما أعلم، «فارس» أيضًا أصبح يعلم عن مشاعري أكثر مما يعلم زوجي، فتحت تطبيق الرسائل مرة أخرى وكتبت لـ«فارس»: «تدور بنا الحياة في دوائر لا متناهية، تقاطعت الآن دائرتي مع دائرتك، فإلى أين ينتهي هذا التقاطع؟»، قرأ الرسالة ولم يجب بسرعة، انتظرت بعض الوقت حتى أجابني: «دائرتي متسعة، ودائرتك ضيقة، لعل اتساعي يحتوي ضيقك»، لديه القدرة على كتابة الجمل المطاطة التي تحتمل أكثر من معنى، حتى في منشوراته، كثيرًا ما كتب مثل هذه الجمل التي قد يفهمها كل شخص بمعنى مختلف، طلبت منه أن يتوقف -في الحديث معي- عن هذه الجمل التي لا أستطيع أن أفهم منها معنى مباشرًا، أرسل لي ضحكةً وسألني مجددًا عما يضايقني، أخبرته بالتفصيل عن قصة الزهور التي بدلًا من أن أضعها لتزيين حياتنا وجدت أني أضعها على قبر علاقتي بزوجي، طال بيننا

الحديث حتى تباشير الصباح، فوجئت به يطلب مني أن يرى صورتي، شعرتُ بالحرج، رفضتُ، فألحَّ، ولم يتوقف حتى وعدته أني سأفعل، ولكن ليس الآن، ثم استأذنته أن أغلق الآن؛ لأن الهاتف يحتاج للشحن، بعد أن تركت الهاتف من يدي اكتشفت أني ابتسم، هل تخلصت من عذاب الضمير؟ ذهبت نحو غرفة النوم كي أضع الهاتف على الشاحن، كان «أمير» يحتل أغلب مساحة السرير وكأنه مستمتع بغيابي عن جواره، برفق أزحت يده كي أجد لنفسي مكانًا أنام فيه، فتح عينيه حين شعر بي، استدار كالعادة ومنحني ظهره، للمرة الأولى منذ زواجنا أنام وظهري نحوه، لم أجد في نفسي تلك الرغبة التي طالما راودتني أن أنام في حضنه، أغمضت عيني وعلى وجهي ابتسامة سعيدة، شعرت بشيء من لذة الانتصار؛ لأني استطعت أن أتجاهله كما يتجاهلني، أني أفرض إرادتي كما يفرض إرادته، تنفست بعمق وشعرت بالراحة، ثم انزلقت ببطء في خدر النوم اللذيذ.

* * *

(٨)

مرت عشر دقائق منذ غادر عامل الصيانة بحثًا عن مساعدة، لكن راكبات عربة السيدات شعرن وكأنها عشر سنوات، بكت بعضهن بصوت مسموع، سارعت الراكبات المجاورات بمواساة الباكيات بينهن، تأثير دموع المرأة قويٌّ على الرجل يصيبه بالارتباك، ويوقف عقله عن التفكير، بينما تأثيرها على النساء يظهر بوضوح في استدرار تعاطف فوري بينهن، فإذا بكت امرأة تتوحد معها باقي النساء فورًا، لدرجة أنهن قد يتشاركن البكاء بلا سبب ظاهر أو مقنع بالنسبة للرجال، لكن هذه الدموع هي دستور التعاطف بينهن.

الراكبة ذات العباءة السوداء كانت أعلاهن نحيبًا، مما دفع المرأة الأربعينية التي ترتدي الرمادي إلى احتضانها والبكاء معها، وهو ما أثار مشاعر المرأة ذات الشعر الأحمر القاني إلى التربيت عليهما معًا وعيناها تلتمعان بدموع تستعصي على السقوط.

طالبة الهندسة المجاورة كانت الأكثر شجاعة بين الراكبات، حاولت أن تبثَّ بينهن الثبات والأمل، فبدأ الهدوء يسري ببطء بينهن، منتظراتٍ عودة عامل الصيانة بالمساعدة، في نفس الوقت رفعت المرأة المنتقبة صوتها بقراءة القرآن، فساعدت في طمأنة الباكيات.

* * *

(ناهد)

عاد «محمد» متأخرًا بعد انتهاء وردية عمله على «التوك توك»، كنت أنتظره بصحبة القلق الذي ازداد بي تعلقًا حين رأيت ملامح «محمد» المتجهمة، لم يُلقِ السلام، مرَّ صامتًا من الصالة إلى حجرة النوم، هرولت خلفه، احتضنته من ظهره، وهو يتناول منامته من على الشماعة، ربت بيدي على صدره وأنا أسند خدي على ظهره:

- أرجوك لا تغضب مني، لم أملك القوة الكافية للرفض، صورة «إياد» وهو يرقد بالعناية المركزة دفعتني لسلوك أي طريق قد يساعدنا.

نزع يديَّ المحيطتين بجسده، والتفت نحوي، ما زال يصر على أن يؤلم قلبي بدمعاته الملتمعات بمقلتيه، طالت نظراته الصامتة، فوجدتني مدفوعة لاحتضانه، هل عانقته تأثرًا بدموعه؟ أم إنني فعلت لألتمس منه القوة؟ دائمًا ما يمنحني وجوده أمانًا أحتاجه، وصلابة في مواجهة الحياة، حين أسندت رأسي على صدره سمعت نبضاته وكأنها تتسابق، ضممتُه بقوة أكبر وأنا أتنهد، للحضن لغة خاصة، أعظم تلامس جسدي بين البشر، انسابت الطمأنينة في عروقي بسرعة وهو يلفُّ ذراعيه حول جسدي، قبَّلت صدره، للصمت لغة أيضًا، ورغم صمتنا إلا أن حديثًا طويلًا دار بيننا، لم تكن الكلمات هي بطلته، بل كان هذا العناق الطويل، عناق أخبرني كم يحبني هذا الرجل، وصلتني مشاعره بكل وضوح، شعرت بحنانه وألمه وصراع نفسه، ومتأكدة أنه قد فهمني أيضًا، استوعب خوفي على «إياد»، احتوى قلقي واضطرابي، مدَّ يده اليمنى تحت ذقني ورفع وجهي، نظر إلى عينيَّ بحب بالغ ووَلَهٍ ظاهر، طبع قبلةً على خدي تحمل كل حنان الأرض، تملكتني السعادة حين زاد ضمي إلى

صدره، أغمضت عيني في اطمئنان حين أخبرني أن اللّٰه سيكون معنا في كل حين.

* * *

(إيمان)

قدر من التمرد بدأ يسكن مشاعري تجاه «أمير»، بعد أن خرج إلى عمله، وركب الطفلان حافلة المدرسة وجدتُ في نفسي رغبة عارمة للخروج من البيت، ارتديتُ ملابس مناسبة للنهار، توجهتُ نحو محطة المترو، واستقللته حتى محطة الأوبرا، خرجتُ متوجهةً نحو كوبري قصر النيل، أطفأتُ هاتفي واستمتعتُ بشمس الشتاء الحنون، ومنظر النيل الرائع، راودني حلم أني ذات يوم سأقضي الليل كله في هذا المكان حتى أشاهد شروق الشمس وهي تصعد من مياه النهر، ولم أهتمَّ كثيرًا إن كنت سأفعل ذلك وحدي أم بصحبة «أمير»، تناثر حولي العاشقون تحتلُّ وجوههم ابتسامات الأمل، تأملت الأنامل التي تتلامس في خجل، والأكفَّ المتشابكة بقوة وكأنها تخبر الزمان أن هناك رغبة صادقة في البقاء، لم يصِبني الملل رغم وقوفي لساعتين في نفس المكان، سكنتني البهجة والصفاء النفسي، لم تؤلمني وحدتي، لم يعكر سعادتي كلمات المعاكسين، في الحقيقة لم تصل إلى أذني، لم أهتم لها، حتى أتي هذا السخيف الذي وقف بالقرب مني، واستمرَّ في النظر نحوي، أدرتُ وجهي إلى الناحية الأخرى، فوجئتُ به يدور حولي ويقف في المكان الذي أنظر له، تجاهلتُه ونظرتُ إلى النيل أتأمل المراكب الصغيرة التي تتهادى فوق الماء، تجرَّأ بالاقتراب وقال جملة ما، انقلبت بهجتي إلى ضيق حين اضطررت

إلى مغادرة المكان، نظرتُ في ساعتي لأكتشف أن ثلاث ساعات مرَّت، كان لزامًا عليَّ العودة إلى المنزل، في الطريق تصفحت «الفيسبوك»، أرسل «فارس» صورة باقة من زهور حمراء مكتوب عليها «صباح الخير»، حكيت له عن مغامرتي الصباحية السرية، وعن مشاعر البهجة التي تملَّكتني، أخبرني عن فرحته أني قررت أن أبحث عن السعادة بنفسي دون الاعتماد على الآخرين، استغرقتُ في الكتابة له حتى كادت تفوتني محطة النزول لولا انتباهي في اللحظات الأخيرة، دلفت إلى المنزل، وفتحت أحد مواقع الموسيقى، أضفت مجموعةً من الأغاني العربية والأجنبية إلى قائمة الاستماع، ورفعت الصوت، بدأت في العناية ببيتي بكل نشاط وأنا أردد كلمات الأغاني التي أسمعها وأكاد أرقص مع موسيقاها أثناء تنظيف المنزل وإعداد الطعام، حين انتهيتُ حصلتُ على حمام دافئ أعاد إلى جسدي انتعاشه، تزينت بألوان تجميل هادئة، هذه المرة كنت أتزين لنفسي، بعد أن انتهيت طبعت قبلةً لنفسي على المرآة، نظرت لأثر شفتيَّ على الزجاج بابتسامة رائقة، ثم تناولت أحمر الشفاه، وكتبت على المرآة بجوار أثر قُبلتي: «كوني سعيدة».

* * *

(منى)

قصصتُ على «أشرف» ما حدث من «جمال» بالتفاصيل، حاولت قدر استطاعتي أن أنتقي الكلمات التي تبقيني في حيز الأمان حتى لا أحصل على سبة أو ضربة بلا داعٍ، انتهيتُ من حديثي وأنا أكاد أرتعش خوفًا منه،

رنَّ هاتفه باتصال من «جمال»، نظر إلى الشاشة بوجه متجهِّم، لم تكن ملامحه غاضبة أو حانقة، هو فقط متجهِّم، أجاب الاتصال بهدوء تعجبت له، هذا البرود أثار قلقي أكثر، بدا من حديثه مع «جمال» أنه يسأل هل عدتُ إلى المنزل أم لا، فوجئت حين أخبره بأن أجرة المواصلات ضاعت مني، ولهذا لم أذهب إليه للحصول على النقود، وأن تأخري لم يكن سوى نتاج خوفي منه، دون سبب واضح وجدتُ نفسي أفكر في «محمود»، أظنه نائمًا الآن، مؤكد أنه لم يتوقف عن اللعب طوال النهار، ولهذا نام مبكرًا، هكذا يفعل حين أتركه في رعاية الجيران عندما أخرج للعمل، لم أنتبه لباقي المحادثة الهاتفية، ناداني «أشرف» بعد أن أغلق الخط، فلم أسمعه من المرة الأولى، سألني عن سبب شرودي، فأوضحت له أني كنت أفكر في «محمود»، ظهر على وجهه الضيق وهو يقول:

- لا يصح أن نتركه عند شقيقتي أكثر من ذلك.

لم أردَّ بسبب دهشتي أنه لم يتحدث عن موقف «جمال»، لماذا كذب عليه، وادَّعى أنه لم يعلم بما حدث منه، وألَّف حكاية وهمية توحي بأنني لم أخبره، نهض متجهًا نحو المطبخ:

- سأصنع لنفسي كوبًا من الشاي، هل ترغبين في الشرب معي؟

«أشرف» يصنع لنفسه شيئًا!!، لو أن حياته متعلقة بشربة ماء لأمرني بإحضارها، ولا يتحرك من مكانه، فتح الثلاجة:

- لا يوجد أي طعام في المنزل على الإطلاق، كيف سنُحضر «محمود»؟ ماذا سنُطعمه؟

خطوت نحو المطبخ، ووجدته بالفعل وضع إناء الماء على الموقد، كان يبحث عن الشاي والسكر، التفت نحوي مبتسمًا:

- أين خبّأتِ الشاي؟

ضحك بعدها بسماجة توضّح مدى التصنُّع في مزحته، مددتُ يدي إلى علبة الشاي وناولتها له، ثم حرَّكت علبة السكر ووضعتها أمامه شاردة، ما الذي يدور في عقلكَ يا رجل؟ ما سرُّ هذا الهدوء الغريب؟ «أشرف» يصنع الشاي!! ما زلت لا أصدِّق ما أرى، كان يتحدث بلا انقطاع، ويضحك بلا سبب، صبَّ الشاي وناولني كوبي وهو يخرج من المطبخ، جلس على الأريكة المواجهة للتلفاز، اختار قناة تعرض أفلامًا كوميدية، لأول مرة يطلب مني الجلوس إلى جواره، ثم سألني:

- ما رأيكِ في الشاي؟

رشف من كوبه بصوت مسموع:

- اللّٰه عليك يا أبا «محمود»، كوب شاي كما أوصى عليه لقمان الحكيم.

التفت نحوي:

- لماذا لا تشربين؟

تناولت كوبي، ورشفت منه:

- جيد.

- جيد! إنه رائع، ألا أسمع منك «سلمت يداك يا أشرف».

وجدتني أرسم ابتسامة مصطنعة على وجهي:

- سلمت يداك.

سألني متى سنحضر «محمود»؟ لم ينتظر إجابتي وهو يضيف أنه من الصعب أن نحضر الطفل دون وجود طعام بالمنزل، وبالطبع الطعام يلزمه نقود، صمت قليلًا ليتناول رشفة أخرى، دون أن ينظر نحوي:

- أنا أثق بأنك ستستطيعين وقف «جمال» عند حده.

لم أفهم معنى جملته، نظرتُ نحوه، كان ينفخ في كوب الشاي قبل أن يتناول منه مجددًا:

- نحن مضطران أن تعودي إلى «جمال» للحصول على النقود قبل أن يسافر في الفجر، لا سبيل آخر أمامنا.

* * *

(٩)

جلست طالبة الهندسة تتأمل راكبات عربة السيدات، الوجوه الغارقة في مُلُوحة العرق والدموع، الشفاه المتمتمة بالأدعية والصلوات، العيون المُسبِلة في استسلام أو يأس أو رجاء، ملامح التوتر والفزع تحتل الوجوه المصفرة، قليلات هن من بدا عليهن الاطمئنان، المتمسكات بالأمل، القابضات على الرجاء، تذكرت جدالهن في بداية المحنة، من ترحَّمت على المنتحرة بدافع إنساني، ومن تعاطفت لمجرد كون المنتحرة أنثى، ومن سبَّت وغضبت وكفّرَت، ومن لم تبالِ، مجتمعٌ مصغَّر جمعته الظروف ليكشف عن وجهه الحقيقي، دائمًا تتبدى المشاعر الحقيقية في أوقات الأزمات، المحن تُسقِط الوجوه المصطنعة.

* * *

(إيمان)

اسمي «إيمان»، وأراه صفةً لي أيضًا في غالب تصرفاتي، فأنا مؤمنة بالحياة، مؤمنة بالأمل، مؤمنة بنفسي وحيويتي وانطلاقي، مؤمنة أيضًا بأني لن أسمح لأحد أن يسلب مني هذه الشخصية المرحة اللطيفة بشهادة كل المقربين مني، لن أسمح أن ينطفئ وهجي، ولا أن تُسلب مني روحي، كنت أراقب «أمير» وهو يتناول طعام الغداء ويتحاشى أن ينظر إليّ، حين فرغ من طعامه لحقت به عند الحمام، وهو يغسل يده:

- أريد أن أبيت وحدي عند أمي ليلتين.

غسل يده من بقايا الصابون، وتناول المنشفة:

- والولدان؟

وضعت يدي على مدخل الباب، وكأني أحاصره داخل الحمام:

- سيبقيان معك.. غدًا الجمعة وبعد غد السبت، لا عمل أو مدارس أو واجبات منزلية.

توجهت نحو المطبخ؛ لأعدَّ له القهوة، لم أنتظر منه موافقة، كنت أخبره لا أستأذنه، وأظنه فهم ذلك؛ لأنه لم يعلِّق على كلامي، قدَّمت له فنجان القهوة في الصالة، ثم انصرفت إلى حجرتي، ارتديت ملابسي، وجهَّزت حقيبة صغيرة بها ما يكفي لقضاء يومين بمنزل أبي، خرجت إلى الصالة، وقبَّلت الطفلين، طلب مني الانتظار قليلًا، نهض نحو غرفة النوم ثم ناداني، تركتُ الحقيبة خلف الباب، وذهبت إليه، وجدته يمد يده بنقود:

- أظنها تكفيكِ ليومين، وشراء بعض الفاكهة لأسرتك.

سحبتُ النقود من يده وأنا أشكره، خرجت من المنزل وطعم الانتصار يسعدني، كيف سيتصرف هذين اليومين مع الصغيرين وطلباتهما؟ هل سيتركهما أيضًا ويخرج إلى المقهى؟ لعل تلك المدة القصيرة توضح له حاجة الطفلين إلى وجوده بينهما، في الطريق تحدثت مع «فارس» وأخبرته بذهابي إلى منزل الأسرة، طلب مني أن نتقابل، إنها المرة الأولى التي يطلب فيها ذلك، لم أجِب رسالته فأرسل أخرى، أخبرني أنه سيلتقي بعدد من الأصدقاء

في وسط البلد، لن نكون وحدنا، بل ضمن المجموعة، وإذا لم تعجبني الجلسة فلأنصرف وقتما أشاء، تجاهلت أيضًا هذه الرسالة، أغلقت الهاتف، وقررت أن أُبقي الأمر معلقًا لفترة كافية للتفكير في هذا العرض.

فترة المساء كانت ممتعة للغاية، جلست مع أبي وأمي وأخي نتذكر مواقف الطفولة البريئة، ضحكنا كثيرًا، وشعرت بروحي يسكن جموحها ويهدأ، هاتفت «سما» مرتين عبر الهاتف الأرضي، أخبرتني أن أباها خرج لفترة قصيرة ثم عاد، جلس معهما بعض الوقت، لكنه لم يكن وقتًا لطيفًا؛ بسبب صمته أغلب الوقت.

* * *

(ناهد)

غرفة مكتبنا كأغلب المكاتب الحكومية تشبه سوق عكاظ! زحام مستمر، وضوضاء دائمة، لا أحد ينتبه لأحد، لن يكون عسيرًا أن أقوم باستبدال التقارير بملف قضية «الأستاذ»، أخرجت التقرير الأصلي من الملف، وتركته على سطح مكتبي بين الأوراق، تناولتُ من حقيبتي التقرير البديل ووضعته إلى جوار الآخر، تشاغلت عنهما عمدًا؛ حتى أطمئنَّ إلى أن باقي الموظفين بالمكتب منشغلون عني، أنهيت بعض الأوراق الأخرى ببطء متعمد، رنَّ هاتفي، فنظرتُ إلى الشاشة، كان المتصل «محمد»، تعجبت للأمر؛ فهو نادرًا ما يتصل بي في وقت العمل، فتحت الخط فأتى صوته متهدجًا بالبكاء:

- الحقي بي في المستشفى فورًا.

انخلع قلبي من مكانه وأنا أسأله:

- ما الأمر يا «محمد»؟

- نزف «إياد» ويحتاج لنقل دم فورًا.

تركت كل شيء على المكتب كما هو، وهرولت نحو الباب، لحقت بي زميلتي «هدى» عند السلم:

- ما الأمر يا «ناهد»؟

أجبتها وأنا أهرول على السلم، وأرفع صوتي كي تسمعني:

- مضطرة للذهاب إلى المستشفى، أرجوك أعيدي الملفات إلى الدولاب، وضعي كل الأوراق في الدرج، واحتفظي بالمفتاح حتى الغد.

بقيتُ بالمستشفى بينما «محمد» يدور على بنوك الدم من أجل توفير أكياس الدم المطلوبة، ورغم خطاب التوصية المحرر من المستشفى إلا أنه لم يتمكَّن بسهولة من العثور على فصيلة الدم المطلوبة، كنت أهاتفه كل ربع ساعة لأطمئنَّ، تمكَّن الأطباء من السيطرة على النزيف، لكنهم كانوا يستعجلون أكياس الدم التي تأخر وصولها، في النهاية اضطر «محمد» إلى التبرع بدمه كي يستبدله بالفصيلة المطلوبة، عاد إلى المستشفى مساءً واهنًا ويتحرك بصعوبة، سلَّمنا أكياس الدم إلى الأطباء، وخرجت لأشتري له العصير ليعوض ما تبرَّع به من دماء، ووعدته عند العودة إلى المنزل بعد الاطمئنان على «إياد» أن أطهو له دجاجة كاملة ليتغذى عليها وحده، نظر لي متسائلًا:

- هل ستشترين لي الدجاجة من نقود الرشوة؟

لم أجرؤ على الردِّ مباشرة، لكني بعد قليل أخبرته:

- يوجد في المنزل الباقي من راتبك، سنشتري منه الدجاجة.

رفع سبابته اليمنى أمام وجهي:

- نزيف «إياد» علامة لنا يا «ناهد»، نقود الرشوة ستقتل ولدي، وأنا لن أسمح لك بذلك، لن أدعكِ تقتلين ابني الوحيد يا «ناهد».. هل تفهمين؟

نهض متحاملًا على نفسه متجهًا نحو غرفة العناية المركزة، وأسند رأسه إلى الدائرة الزجاجية بأعلى الباب؛ ليحاول استطلاع ما يحدث بالداخل بعد أن أسدلوا الستائر أمام الحاجز الزجاجي الذي كنت أراقب «إياد» منه، وقفت مكاني صامتةً أفكر في كلماته وعيني متعلقة بباب العناية حتى خرج الطبيب ليطمئننا على استقرار الحالة، ويؤكد ضرورة الإسراع في توفير نقود الجراحة، تبادلت نظرات صامتة مع «محمد»، كنت أنظر له بلوم وكان ينظر لي بعتاب، طوال الطريق إلى المنزل لم نتبادل كلمة واحدة.

* * *

(منى)

لا أصدِّق أنني استجبت لـ«أشرف» بالعودة لإحضار النقود حتى وأنا الآن أطرق باب شقة «جمال»، أشعر وأني امرأة أخرى، وكأني أشاهد ما يحدث من

شاشة التلفاز، فتح «جمال» الباب وهو يرتدي جلبابًا أبيض خفيفًا رغم أننا في الشتاء، ابتسم حين رآني، أفسح الطريق وأشار لي بالدخول، دلفتُ عبر الباب متجهةً نحو نفس الأريكة التي جلست عليها منذ ساعات قليلة، قارب الوقت على منتصف الليل، أغلق الباب بالمفتاح، كانت روحي تنسحب من الرعب، لكني لم أتفوَّه بكلمة، كنت أنظر نحو الأرض منذ دخلت، رأيته يقترب مني حتى وقف أمامي تمامًا، مد يده ليرفع رأسي:

- أعجبني تعقلُّك في عدم إخبار «أشرف».

جلس إلى جواري، وأحاط كتفي بذراعه، تحركت مبتعدة قليلًا، فاقترب:

- اسمعي يا «أم محمود»، أنا رجل يحب أن يحصل على ما يريد بالرضا.

جذبني نحوه، فحاولت أن أقاوم جذبته، حاول تقبيلي، فأدرت وجهي، لكنه حاول مرات ومرات، دفعته بكل ما أملك من قوة وأنا أنهض من مكاني:

- ألم تقل إنك ترغب في الرضا؟ أنا لا أرضى.

أسند ظهره إلى الأريكة، وابتسم بسخرية:

- لكنك مضطرة، والمضطر يركب الصعب يا حلوة.

نظرت إلى الساعة القديمة فوق الثلاجة، وجدتها تُشرف على الثانية عشرة إلا دقائق قليلة:

- الوقت تأخر، ولا يمكنني المكوث أكثر من ذلك، سيقلق «أشرف»، دعني للمرة القادمة.

نهض ليقترب مني، فتراجعت خطوتين للوراء، نظر إليَّ متفحصًا جسدي، فضممتُ يدي إلى صدري أداريه من عينيه، منحني ظهره:

- إذن فلتحصلي على النقود في المرة القادمة.

انكببت على قدميه وأنا أبكي:

- أرجوك يا «جمال»، لا يوجد طعام في المنزل من أجل الصغير، وصاحب البيت على وشك أن يطردنا، كن رحيمًا.

دفعني برجله، ثم جلس على الأريكة، ونظر إليَّ وأنا متكومة على الأرض أبكي:

- وكيف أضمن أن تكون هناك مرة قادمة؟

زحفتُ قليلًا؛ لأقترب من الباب:

- أنت تعرف أن «أشرف» لا يعمل، وأن حاجته للنقود لن تنقطع.

هزَّ رأسه وكأنه يزن الأمر في رأسه، ثم مد يده إلى جيب الجلباب وأخرج النقود، أشار بها:

- على الأقل، فلأحصل على عربون الرضا.

نظرت له صامتة، ربت فخذه:

- تعالي.

نهضت واقفة أمسح دموعي:

- ولماذا تحصل الآن على جزء من المتعة إن كان بإمكانك الحصول على متعة كاملة فيما بعد.

أعاد النقود إلى جيبه:

- كما تريدين.

تعلَّق بصري بيده الكامنة بجيبه، لا أدري ماذا أفعل، عاد يربت على فخذه، وهو يشير إليّ:

- عشر دقائق فقط، وتحصلين على النقود.

خطوت خطوة إلى الأمام، لكن قدمي لم تطاوعني للاقتراب أكثر، أخرج هاتفه:

- هل أطلب «أشرف» لأسأله لماذا لم تحضر زوجتك حتى الآن لتحصل على النقود؟

هززتُ رأسي نفيًا، ثم تقدمت نحوه، وجلست كما طلب.

مرَّت الدقائق العشر وحصلت على النقود، لم ينل مني الكثير، لكن أقلَّ القليل كان مهينًا للغاية، طلبت منه أن يفتح الباب وأنا أغالب دموعي، لم أعد أرغب في إظهار ضعفي وقهري أمامه، ناولني خمسين جنيها:

- خبِّئي هذه لنفسك، وحين أحصل على ما أريد سأمنحك ضعفها، بل أضعافها، وإذا كنتِ أكثر تعقلًا، فلن أطالب باسترداد الديْن.

فتح الباب، فهرولت خارجة لا أرى الطريق من بين دموعي.

* * *

(١٠)

وصل عامل الصيانة إلى محطة «عرابي» قادمًا من النفق، ما أن رآه رجال الشرطة حتى منعوه من التقدم، حين شهد رئيس المحطة ذلك طلب منه أن يشارك باقي العمال في التجهيزات اللازمة لمعاينة النيابة، حاول العامل أن يتكلم ليقصَّ عليه ما رآه في المترو المتوقف داخل النفق، لكن أحدًا لم يمنحه الفرصة، نهره رئيسه وهو يدفعه ليشارك باقي العمال مهامهم، شعر العامل بالمسئولية الملقاة على عاتقه، لا أحد يهتم بما لديه، وضميره لا يسمح له بالصمت أو التخاذل، غافل رئيسه حين سنحت له الفرصة وعاد إلى النفق من جديد.

* * *

(ناهد)

خرج «محمد» إلى عمله ودَّعته عند الباب بعناق دافئ لم يرد بمثله، ما زال صامتًا منذ ليلة أمس، أدرك أنه سيسامحني يومًا ما، أتفهَّم صحة موقفه تمامًا، لكني لا أستطيع أن أقف مكتوفة اليد أمام آلام «إياد»، لم أنم طوال الليل بسبب كثرة التفكير، لم تنتظم دقات قلبي منذ عرفت بخبر النزيف، أشعر بأني أختنق بالحيرة، قررت ألا أذهب إلى العمل اليوم، لا أريد أن أستسلم للحظة ضعف، استلقيتُ على سرير «إياد»، وأنا أحتضن منامته التي كان يرتديها قبل أن يحتجزوه في المشفى، قبّلتها كثيرًا، استنشقتُ رائحته

فيها حتى تسكن روحي لأطول فترة ممكنة، تناولت حقيبتي، وأخرجت منها النقود التي منحها لي «الأستاذ»، نثرتها بغير انتظام على السرير، تنقَّل بصري بينها وبين منامة «إياد»، وفي نفس الوقت ترددت كلمات «محمد» في عقلي بلا انقطاع: «لن أدعكِ تقتلين ابني الوحيد يا «ناهد».. هل تفهمين؟»، صورته وهو يهز سبابته أمام وجهي محذرًا: «إياكِ يا ناهد»، ألقيتُ المنامة فوق النقود أخبِّئها عن نظري، انتفضتُ حين رنّ الهاتف فجأة وسط صمت الشقة المقبض، وشهقت من الفزع، تنهدت وأنا أضع يدي على صدري محاولةً تهدئة نفسي، سخرت من نفسي، إذا استطعت أن أهدئ روعي من فزع صوت الهاتف فكيف أشعر بالهدوء وأنا في مصيبتي هذه، نهضت بتثاقل وأنا لا رغبة لي في الرد على الهاتف، لولا خاطرٌ جال بعقلي أن يكون المتصل هو الممرضة، جعلتني هذه الفكرة أهرول نحو الهاتف، قرأتُ على الشاشة اسم «هدى»، تهدّلت كتفايّ وأنا أتخلص من توتر الأفكار السوداء التي هاجمتني؛ تحسبًا أن يكون الاتصال من المستشفى، ضغطتُ على زر الإجابة، ورفعت الهاتف إلى أذني بيد مكدودة، كانت تطمئنُّ عن سبب عدم حضوري اليوم، اعتذرت بسبب سهري طوال الليل قلقًا على «إياد»، واستأذنتها أن تقدم لي إجازة عارضة، وتبلغ رئيس القلم أسفي لعدم الحضور، أخبرتني أن هناك فتاةً تسأل عني وصفتها بأنها هربت للتوِّ من غلاف إحدى مجلات الموضة، تسارعت دقات قلبي، لا بد وأنها سكرتيرة «الأستاذ»، طلبتُ منها أن تتحجج لها بأي عذر ولا تجعلها تحادثني، سارعت بإغلاق الهاتف، وأحطتُ رأسي بكفيّ، تحدثت إلى نفسي بصوت مسموع: «ماذا ستفعلين يا «ناهد»؟ ولدك أم مبادئك؟ زوجك أم طفلك؟»، ماذا سأكسب مما أفعل إذا صدَّقت نبوءة «محمد»، وكانت هذه النقود سببًا في موت طفلي؟ صرخت: «بعد الشر.. بعد

الشر عنك يا ولدي»، هرولت إلى حجرة «إياد» أعيد النقود إلى مظروفها، وقررت أن أعيدها للأستاذ، حين فتحت حقيبتي سمعت صوت «إياد» يئنُّ، شهقت وأنا أتلفَّت حولي في الحجرة وأنادي «إياد»، لم يكن الصوت من خيالي، كان مسموعًا بوضوح، وكأنه بجواري الآن، ضممتُ الظرف إلى صدري، وألقيت جسدي على السرير أدفن وجهي بمنامة «إياد» وأبكي، ذرفت دموعي بحرقة، من العجز، من الفقر، من المرض، وقلة الحيلة.

* * *

(منى)

لحقتُ بآخر قطار مترو عائدة إلى البيت كسيرة النفس مطأطئة الرأس، جرجرتُ قدمي في الشوارع المؤدية إلى المنزل، أتحاشى النظر إلى المارة بالشوارع، وكأنهم جميعًا يعرفون ما فعلتُ في منزل «جمال»، صعدتُ درجاتِ السلم بتثاقل وكأن هناك قوة خفية تجذبني للأسفل، شعرتُ بدوار حتى إني استندت إلى الدرابزين؛ خشية السقوط، ولماذا أخشى السقوط، وقد سقطت بالفعل في المستنقع، طرقتُ الباب ففتح «أشرف» فورًا، دلفتُ إلى الداخل صامتة، لم ينظر إلى وجهي حتى جلستُ على الأريكة، سألني بلهفة:

- هل أحضرتِ النقود؟

نظرت له بغلٍّ وأنا أشعر بأن مخّي يغلي ودمائي تكاد تنفجر في شراييني:

- النقود؟ هل كل ما تهتمُّ له النقود فقط؟

نهضت لأواجهه:

- لماذا لا تسألني أولًا عما فعل «جمال» معي كي أحصل على النقود؟

دار بوجهه بعيدًا:

- قلتُ لكِ إنني أثق بقدرتك على التصرف.

أخرجتُ النقود من صدري وألقيتها في وجهه، فتناثرت في الصالة وأنا أصرخ:

- ها هي النقود، هل تودُّ أن تعرف ما الثمنُ الذي دفعته في المقابل؟

لطمتُ وجهي بشدة عدة مرات:

- لقد قبَّلني هنا.

ضربتُ صدري ضربات قوية بكف يدي، وأنا أبكي:

- وضع يده هنا.

رفعت عباءتي، فبان له فخذاي:

- و...

نظر لي بوجه أحمر وعروقٍ نافرة:

- اصمتي.

ضربتُه بقبضتي في صدره:

- لن أصمت، يجب أن تعرف.

اقترب مني واضعًا يده على فمي:

- قلتُ اصمتي.. اصمتي.

ثم هرول نحو الباب ليفتحه ويغادر الشقة، وأنا ألاحقه بصراخي:

- لن أصمتَ يا «أشرف».. لن أصمت.. هل تسمعني؟ لن أصمت.

انهرتُ على الأرض ودموعي لا تتوقف، وصوت بكائي يتردد في الصالة، بعد ساعة جفَّت دموعي، ولم أعد أملك طاقة للبكاء، لملمتُ النقود من الأرض، أحصيتُ المبلغ اللازم لصاحب البيت، ونزلتُ درجات السلم بشعر أشعث ووجنات بها أثر اللطمات والدموع، لم آبه أن الساعة تجاوزت الثانية صباحًا، يجب أن أدفع الإيجار قبل أن يعود «أشرف»، ويستولي على النقود، طرقتُ الباب عدة مرات حتى أضاء نور الصالة، وفتح الرجل مندهشًا:

- «أم محمود»؟ خيرًا؟ ما الذي حدث لكِ؟

مددتُ يدي بالنقود، فنظر إليها مندهشًا، عاد ينظر إلى وجهي وهو يسحب المال من يدي، ويسألني من جديد عما بي، تركته وصعدتُ السلم مترنحة، دخلتُ إلى الحمام، خلعتُ ملابسي ووقفتُ تحت الماء المنهمر أزيل عن جسدي أثر الوحل.

* * *

(إيمان)

عصر يوم الجمعة اتصلت «سما» بي على الهاتف الأرضي في بيت أبي، وأخبرتني بأنهم قادمون لاصطحابي إلى المنزل، اندهشتُ في الواقع من هذه الخطوة غير المتوقعة، رغم ذلك وجدتني أبتسم، أخبرتها أني في انتظارهم، وسأصنع لأجلها حلوى الأرز باللبن التي تحبها، وسأضيف جوز الهند لأجل «أحمد»، وصلوا قبيل المغرب، جلسنا جميعًا في غرفة المعيشة نتحدث ونضحك مع الصغار، بينما «أمير» صامت في حزن واضح، حتى إن أبي لاحظ صمته، أستأذن منا ليخرج إلى المسجد ليصلي العشاء، اصطحب معه «أحمد»، على باب الحجرة أشار لأمي بطرف عينيه، ففهمته فورًا، دائمًا يفهمان بعضهما بالنظرات، بينهما حب كبير ازداد قوةً مع سنوات العشرة الطيبة التي جمعتهما، والتي قاربت على الأربعين، طَلَبتْ من «سما» أن تساعدها في بعض الأشياء، وخرجا معًا، بقيتُ في الحجرة وحدي مع «أمير»، ولم يفُتْ أمي أن تغلق الباب قبل خروجها، نظر «أمير» نحوي:

- عودي معنا إلى البيت.

شبكت ذراعي على صدري:

- أخبرتك أني سأعود مساء الغد، فلماذا تطلب مني العودة الآن؟

طأطأ رأسه قبل أن يجيب:

- البيت دونك بلا طعم.

وجدتُني أردُّ عليه بتحفز وحدَّة:

- وهل تبقى في المنزل حتى تعرف طعمه في وجودي أو غيابي؟

نهض من مكانه ليجلس إلى جواري، أحاط كتفي بذراعه:

- «إيمان».. أنا أحبك.

التفتُّ إليه بكامل جسدي، فحرك ذراعه إلى ظهري:

- لكنك تهملني.. الحب بلا اهتمام أو مشاركة حب منقوص، نحن لا نتحدث تقريبًا، أصبحتُ لا أعرف عنك شيئًا.

ربت ظهري ومسحه بحنان جعل قلبي يدقُّ بسرعة:

- معكِ حق، وأعدك أن أتغير.. عودي معنا من فضلك.

لم يعتذر أو يبدي ندمًا عما فعله معي يوم اشتريت الزهور، لكن نظرات الحب في عينيه جعلتني أتراجع عن قراري بالبقاء في منزل أبي، هززت رأسي بالإيجاب:

- حاضر.

ابتسم ابتسامة واسعة، ثم قبَّل جبيني واحتضنني، لففتُ ذراعي حول جسده، وضممته بقوة وأنا أكاد أبكي، طلب مني أن أتجهَّز لنغادر الآن، ووعدني أن نتناول العشاء بالخارج.

عاد أبي من المسجد بعد أن ارتديتُ ملابسي، ولمح في عيني السعادة فابتسم، قبَّل وجنتي، وأوصاني بزوجي وأولادي، دخل إلى «أمير» وطلب منه أن يعتني بنا رغم أني لم أقصَّ عليه شيئًا.

خَيّرنا «أمير» وهو يدير محرك سيارته عن المطعم الذي نودُّ التوجُّه إليه، اختار الأولاد أحد المطاعم التي تقدِّم وجبات للأطفال بصحبة لعبة، وبها مكان للصغار؛ لممارسة شقاوتهم التي لا تنتهي، لكنه نظر إليّ مبتسمًا في حنان:

- الاختيار الليلة لأمكما.

ابتسمتُ وربت كتفه، واخترت نفس المكان؛ حرصًا على سعادة الطفلين، عدنا إلى البيت قرابة منتصف الليل وضحكات السعادة تتردد بيننا، حين دخلتُ إلى حجرة النوم لتغيير ملابسي احتضنني بشوق، وللمرة الأولى منذ تزوجنا أسمع منه كلمة اعتذار، ألقيتُ رأسي على كتفه وأنا أردد: «أحبك»، طلب مني أن أنام هذه الليلة في حضنه، لم تكن لحظة أخرى في حياتي أسعد من هذه اللحظة، وأنا أضعُ رأسي على صدره، وأستمع إلى نبضات قلبه وهو يخبرني بأنه يحبني إلى الدرجة التي لا يمكنه معها الاستغناء عني أبدًا.

* * *

(١١)

حين عاد عامل الصيانة إلى النفق نحو المترو المتوقف والمحتجز به السيدات في عربتهن، قرر أن يحطِّم زجاج أحد الأبواب ليخرج المحتجزات داخل العربة، في الثانية الأخيرة قبل أن تمسَّ عتلته زجاج الباب تذكَّر أنه يُمكن أن يُحال للتحقيق بتهمة إتلاف المال العام، وربما يتطور الأمر إلى فصله من العمل، وتغريمه قيمة الزجاج المحطم، ساعتها لن يهتمَّ أحد بأرواح المحتجزات داخل العربة، وسيهتمون فقط بتسديد خانات العهدة في الأوراق الرسمية، ابتعد العامل عن العربة محاولًا التفكير من جديد، صرخت السيدات مطالبات إياه بتحطيم الزجاج وعدم تركهن للموت خنقًا، فجأة، هرول نحو كابينة القيادة في مقدمة القطار، صعد إليها، وضغط أزرار التحكم، حاول أن يفتح الأبواب، لكنها لم تنفتح دون المفتاح الخاص بها، ضغط أيضًا الأزرار الخاصة بالتكييف، لكنها لم تستجب كذلك، يجب أن يحضر أحد مفاتيح التشغيل، قرر أن يذهب إلى محطة «الشهداء» لإخطار الناظر هناك ما دام أن الأمور لم تسِر كما يجب في محطة «عرابي».

(ناهد)

- أمي.. أشعر بالصداع.

- لا تتهرب يا «إياد» من الواجب المدرسي، انتهِ منه أولًا، واذهب للنوم، وستستيقظ بخير.

- رأسي يؤلمني يا أبي.

- ستمنحك أمك «حبة مُسكِّن» الآن وستصبح بخير.

- لقد تعبت اليوم في المدرسة بسبب آلام رأسي.

- أول الشهر سنذهب إلى الطبيب يا حبيبي.

- «ناهد».. «ناهد».

انتزعني نداء «محمد» من ذكرياتي، فسألني:

- ما بك؟

نظرتُ له في حيرة:

- لماذا لم ننتبه؟ لماذا لم نهتمَّ بابننا الوحيد حين كان يتألم؟

ذهبنا إلى الطبيب للمرة الأولى، فقط حين أصابته إغماءة في المدرسة، كانت كلماته قاسية: «لقد تأخرتم كثيرًا.. كيف صبرتم كل هذا الوقت حتى استفحل المرض، ودخل الطفل في دائرة الخطر؟».

جلس «محمد» على المقعد المجاور:

- إنه قدر الله يا «ناهد».

لم أستطع أن أسيطر على انفعالي، وأنا أنهض من مكاني:

- ولماذا لا يختار قدر الله إلا ابني الوحيد؟

حدق «محمد» في وجهي:

- «ناهد».. ما الذي تقولين؟

طأطأت رأسي خجلًا، ثم مسحت وجهي، وأنا أستغفر الله، جلست مرة أخرى على الأريكة وأنا أحيط وجهي بكفيّ مرددة الاستغفار أكثر من مرة، جلس «محمد» بجواري وهو يربت ظهري ويضم رأسي إلى كتفه:

- قدر الله كله خير يا «ناهد»، الاعتراض لن يغير من الأمر شيئًا.. علينا بالصبر.

نظرت إليه والدموع تحجب صورته عن عيني:

- الصبر أيضًا لن يغير شيئًا يا «محمد»، إنما التغيير يأتي من السعي، علينا أن نسعى حتى يشفى ابننا.

اعتدل «محمد» في جلسته وصمت قليلًا، غمغم بكلمات لم أتبينها، تعمَّدت ألا أسأله عما قال؛ خوفًا من أن يعيد النقاش من جديد في موضوع نقود «الأستاذ»، لستُ على استعداد لمناقشته مرة أخرى، سيخبرني أنه مال حرام، وسأرد عليه بأن رقدة ابني بين الحياة والموت بينما آخرون يُعالجون بالخارج على نفقة الدولة من نزلة برد أكثر حرمة، مئات الفاسدين يسرقون حقوقنا، ولا يحاسبهم أحد حرام أيضًا، أنا لا أرتشي ولا أسرق، أنا أقتنص حق ابني في العلاج من بين أنياب الفساد، وفي كل الأحوال سيجد «الأستاذ» طريقة أو أخرى ليربح القضية وينعم موكله بالحرية، فلماذا لا أنعم أيضًا بشفاء ابني وعودته إلى حضني مرة ثانية، لن أتحمل أن تكون الأموال متاحة بين يدي

وأترك ابني للموت، سأبدل التقارير غدًا وليكن ما يكون، نهض «محمد» من جلسته متجهًا نحو الخارج دون أن يخبرني إلى أين، سألته قبل أن يغلق باب الشقة عن وجهته:

- سأسعى يا «ناهد»، لعل سعيي يكون سببًا في شفاء «إياد».

خطا خطوة واحدة عبر الباب، ثم التفت نحوي:

- سأتمسك أيضًا بالصبر مع السعي.

أغلق الباب خلفه وتركني وحيدة في دوامة من الأفكار.

* * *

(إيمان)

تغيَّر «أمير».

مرَّت ثلاث ليالٍ منذ عودتي للبيت، لم يخرج في الليلتين الأوليين سوى لشراء طلبات للمنزل، وفي الليلة الثالثة خرج للمقهى، لكنه عاد قبل منتصف الليل، قضى وقته في المنزل بصحبتنا في الحديث والضحك، وشارك الأولاد في الواجبات المنزلية، حتى إنه وقف معي بالمطبخ أثناء إعداد القهوة يحكي لي ما مرَّ بيومه في العمل، في الليل كان رومانسيًا كما لم يكن من قبل، لم يكن يؤدي وظيفة أو عملًا روتينيًا كالمرات الأخيرة، بل كان عاشقًا يُسمعني كلماتٍ تصف مشاعره وسعادته، تغيَّر «أمير».

ترك لي حرية اختيار القناة التلفزيونية التي نشاهدها معًا، لهذا اهتممتُ أن أعرف متى موعد المباراة القادمة لفريقه المفضل، وشاهدتها معه، لم أزعجه بتعليقاتي عن جدوى هرولة اثنين وعشرين رجُلًا خلف قطعة منفوخة من الجلد، أو أسئلتي التي قد تبدو في نظره تافهة حول لماذا يرتدي أحدهم زيًا بلون مختلف، ويُسمح له بمسك الكرة بيده دون الآخرين! قفزتُ معه من الفرحة حين أحرز فريقه هدفًا، وصنعت لهم قالبًا من الكيك اللذيذ حين انتهت المباراة بالفوز لصالحهم، في صباح اليوم التالي أثناء وجوده في العمل قرأتُ كثيرًا عن كرة القدم، وعن ناديه المفضل عبر الإنترنت، وعرفت أسماء اللاعبين ومراكزهم، وموقع فريقه في جدول الدوري، سيتفاجأ حتمًا في موعد المباراة القادمة حين يجدني أشاركه بحب متعته.

تغيرتُ أنا أيضًا.

لم أعد أقضي وقتًا طويلًا أتصفَّح مواقع التواصل الاجتماعي، أهملتُ الرد على رسائل «فارس» المتتالية، ولم أضع تعليقًا واحدًا على منشوراته، حرصتُ على إتمام زينتي قبل عودة «أمير» إلى المنزل، في الليلة الخامسة تهيَّأت له، وطلبتُ منه أن يترك لي زمام الأمور الليلة، فاجأته وأسعدته كثيرًا حتى إنه قبّل يدي بعد انتهاء اللقاء، وهو يخبرني بأنها أسعد لياليه معي.

تغيرتُ أنا أيضًا.

أصبحتُ أتحدث معه بطريقة ألطف، اهتممتُ بشئونه بشكل أكبر، أدركتُ أن السعادة تشبه الدائرة، حين تبدأ من عندك، ستنتهي إليك، فكلما أسعدني «أمير» بتصرف ما أسعدته أكثر مما فعل.

تغيرنا جميعًا.

اكتشفت أن الطفلين أيضًا أصبحا أكثر سعادةً ونشاطًا حين استقرَّت الأمور بيني وبين «أمير»، انضبطت علاقة «سما» و«أحمد» وخلت تقريبًا من العدوانية والعراك المستمر بسبب ودون سبب، فوجئت أن «أحمد» يطلب من «سما» مشاركته ألعاب الفيديو بدلًا من الاستحواذ عليها منفردًا لفترات طويلة، «سما» أيضًا أطلقت على إحدى ألعابها اسم «أحمد»، وتركته يلعب بما يشاء من ألعابها، شملت دائرة السعادة الأبناء حين ضمَّت الآباء، لا أظنُّ أن هناك حياةً أفضل استقرارًا ولا أسعد من ذلك.

* * *

(منى)

منذ أسبوع مضى لم يتبادل معي «أشرف» النظرات تقريبًا إلا مصادفة، لم ينفتح بيننا حديث إلا للضرورة، وباستثناء جلسات المساء، فهو نائم طوال الوقت، حتى حديثه مع «محمود» تغيَّر، أغلب وقت استيقاظه مطأطئ الرأس، صامت، عزف عن الطعام إلا من لقيمات معدودة في اليوم، أسرف في التدخين وشرب الشاي، ثم عاد إلى عصبيته المعتادة حين نفدت النقود.

لم يظهر «جمال» في جلسات المزاج طوال هذا الأسبوع، لا أدري هل عاد من الصعيد بعدُ أم لا؟ كيف سيتواجهان في المرة القادمة؟ هل سيتحاشى النظر إليه والحديث معه كما يفعل معي؟ أم سيتعامل معه بشكل عادي؟

لم يلمسني «أشرف» طوال هذا الأسبوع، ولو كان طلبني لرفضتُ، كيف سيتحمل لمسي في نفس الأماكن التي انتهكها «جمال»، ولو لم يحصل على الكثير؟

اتصلتُ أكثر من مرة بالسيدات اللائي أعمل لديهنّ في تنظيف منازلهن؛ لربما حصلت على عمل ولو ليوم أو يومين، لكني فشلت، نفدت نقود «جمال»، ولا أعرف ماذا سنفعل في الفترة القادمة؟ كيف سيتصرف «أشرف» هذه المرة؟

في سهرة نهاية الأسبوع ظهر «جمال» في جلستهم المسائية المعتادة، هذه المرة أحضر معه ثلاثة أصناف مختلفة من الفاكهة، لاطف «محمود» ومنحه عشر جنيهات ليشتري لنفسه شيئًا مما يسعد الأطفال، علا صوت ضحكات الشلة، وتناثرت بينهم القفشات والنكات وكثر المزاح، طلب مني «أشرف» إعداد الشاي، قبل أن أخرج من غرفتي ارتديتُ العباءة السوداء والطرحة، وتعمَّدت أن أمشي حافية؛ حتى لا يسمع أحد صوت خطواتي وخاصة «جمال»، بعد أن انتهيت من إعداد الشاي تركت الصينية بالمطبخ، وذهبت إلى غرفتي ثم ناديت «أشرف» ليأخذها إلى أصحابه، عند الواحدة صباحًا نام «محمود» بغرفته محاطًا بأكياس فارغة لمقرمشات عديدة الأنواع، لملمتها وذهبت إلى المطبخ؛ لإلقائها في القمامة، أصواتهم في الصالة أصبحت أقلَّ وألسنتهم أثقل، عند الثانية بعد منتصف الليل انصرف الجميع إلا «جمال»، ساعتها حرصت أن أغلق باب غرفتي بإحكام، لكني جلستُ خلف الباب أتسمع ما يدور بالخارج، لم أتبيَّن شيئا لأن غرفتي يفصلها عن الصالة ممر ينفذ لحجرة «محمود» والمطبخ والحمام، طوال هذه الليلة لم يتوقّف قلبي عن الخفقان، سكنني التوتر طوال الوقت حتى سال عرَقي رغم فصل الشتاء، لم

يسكن قلقي إلا حين انصرف «جمال» بعد الرابعة فجرًا بقليل، فتح «أشرف» باب الغرفة متجهًا نحو السرير بخطوات مترنحة، ناولني بصعوبة ورقة مالية من فئة المائة جنيه، لم أسأله عن مصدرها؛ لأني عرفت دون أن يُفصح، كما أن الفرصة لم تسنح لي، فسرعان ما علا شخيره، خرجتُ إلى الصالة لأنظف بقايا السهرة المشئومة، سمعتُ طرقًا خفيفًا على الباب، فانخلع قلبي من الخوف، هرولت نحو الباب على أطراف أصابعي؛ لأتأكد أنه مغلق من الداخل بإحكام؛ حتى لا أفاجأ بما لا أحب، وصلني صوت «جمال» هامسًا:

- أشعر بكِ خلف الباب يا «منى»، افتحي لخمس دقائق فقط.

وضعتُ يدي على فمي؛ حتى لا يصله ما يفضح وجودي، ولو كان صوت أنفاسي المضطربة، طرق الباب مرة أخرى:

- أقسم أني لن أضايقك، سأخبرك أمرًا في سرعة وأنصرف.

استمر صمتي وخوفي، ارتعشت قدماي لا تقوى على حملي، فجلست خلف الباب، عاد صوت الطرقات من جديد، لكنه لم يتكلم هذه المرة، بعد أقل من دقيقة سمعت صوت خطواته تبتعد على السلم.

لم أقوَ على الدخول إلى الغرفة، فلم تسعفني طاقتي التي التهمها الخوف، زحفت حتى الأريكة، وألقيت جسدي عليها وشعرت بالنوم يقتحمني في سرعة جنونية.

* * *

(١٢)

في عربة السيدات ومع عودة الأمل من جديد، عادت الحياة تدبُّ في أوصال الراكبات، وبدأن حديثًا لا ينتهي في مجموعات صغيرة، حكت كل منهن للمجاورات في مجموعتها قصتها، تناثرت الحكايا التي تحمل آلامًا وآمالًا، حب وكراهية، نكات وشكاوى، عادت الدماء تضخ في العروق من جديد، ووجدت البسمات طريقها إلى الوجوه مرة أخرى، رغم أن القلق لم ينسحب بالكامل من أرض المعركة، إلا أن الأمل رفع راياته على كثير من القلوب في هذه العربة.

حتى المنكسرة قلوبهن من صراعهن مع الحياة خارج المترو، اندمجن في الأحاديث التي دارت، وكأن مشكلتهن تم حلها وانفتحت أبواب المترو.

* * *

(إيمان)

أخبرني مدرس اللغة العربية في المرحلة الثانوية ذات يوم أن ابتسامات الحياة تخيفه إذا طالت أكثر مما ينبغي، فكلما كانت ابتساماتها أوسع، كلما كان الألم الذي يتبعها أقسى، تعجَّبت حينها من جملته، فسَّر لي أن دائرة الحياة تدور بين الرخاء والشدة، والأصل في حياة الإنسان الكبَد، فإذا طالت لحظات الراحة، اشتدَّت أوقات الشظف، يبدو أنني اختبرت صدق هذه المقولة بالطريقة الأصعب، فقد دامت ابتسامة السعادة بعد تغير «أمير» لمدة

أسبوعين فقط، بعدها اختفى تقريبًا من البيت، عاد إلى جلسة المقهى والعصبية وقلة الحديث، هذه المرة لم يصدر عني أي تصرف سلبي يمنحه حجة لهذا الهرب، ولم يكن التغيير تدريجيًا أيضًا بل مفاجئًا ومؤلمًا، وكأن هناك قنبلةً انفجرت في المنزل وهو يهرب منها، لم أفهم السر وراء عودته إلى أصدقاء المقهى مرة أخرى، وكدتُ أقترب من الجنون حين عاد ذات ليلة والفجر على بُعد دقائق، أخبرته أني لا أمانع خروجه مع أصحابه، ولا أرفض جلسة المقهى، لكني أطلب منه أن ينظِّم الأمر، فيكفي ليلتين في الأسبوع أو ثلاث، لكن الأمر يزيد على الحد بخروجه كل ليلة بلا انقطاع، انزلق تحت الغطاء، ثم نظر إلى عيني مطولًا قبل أن يرد بكل برود:

- أنا وحدي من يحدد متى أخرج، ومتى أظل في المنزل، وإن كان يزعجك هذا الأمر فعليكِ أن تتعلمي كيفية التأقلم معه.. اتفقنا؟

دارت الكلمات في رأسي:

- نعم يا أمير، اتفقنا، وعلى كل من يلعب لعبة أن يستعد يومًا للخسارة، فلا أحد يربح للأبد، لكنك إن خسرتني فربما يحدث ذلك بشكل فادح، ومن المؤكد أنها ستكون خسارة مؤلمة.. إلى الحد الأقصى.

حين طال صمتي تقلب في السرير، ومنحني ظهره استعدادًا للنوم، لكنني وضعت يدي على كتفه أمنعه، فعاد ينظر إليّ:

- لا تراهن على صبري يا «أمير»، فكل شيء في الدنيا ينفذ.

ابتسم وربت خدي:

- الموضوع لا يستدعي كل هذه الدراما يا حبيبتي.

ثم وضع رأسه على المخدة، وأغمض عينيه، وتركني أغلي وحدي من الغيظ.

* * *

(منى)

صوت طرقات الباب في المساء أصبح يفزعني بشدة، أنتفض وتتسارع دقات قلبي، وأشعر أن قدميّ لا تتحملانني، فأنا أعلم أنهم شلة المزاج، عودة «جمال» أمس جعلت هذه الليلة تمر مرعبة، خاصة حين تكرر نفس الموقف بانصراف كل الرجال إلا «جمال»، كنت أتوقَّع هذا، واستعددتُ له بقدر ما أستطيع، ففي الصباح ذهبتُ إلى عم مينا بائع «الحدائد»، واشتريت منه «ترباس» صغيرًا ركَّبته على باب حجرة نومي من الداخل، حين انصرف أصحاب «أشرف» وبقي «جمال» وحده سارعت بإغلاق الباب بالترباس، ووضعت خلفه المقعد الخشبي القديم تحت المقبض تمامًا، فلم أعد أثق ببقاء «أشرف» مستيقظًا حتى انصراف صاحبه، ولا أضمن ألا يحاول «جمال» دخول الغرفة بعد ذلك، أطفأت النور وجلستُ على الأرض بالقرب من الباب أتسمَّع ما يحدث بالخارج، لو غامر بالدخول، فسيجد سكين المطبخ بانتظاره، فإن كان «أشرف» قد يصمت على أفعال صاحبه، فأنا لن أفعل، وسأدافع عن نفسي بكل وسيلة ممكنة، ظللتُ في هذه الحالة من الترقب لما يزيد على الساعة، يحاول النوم أن يتسلل إلى جفوني، لكنني أقاومه بكل قوة، أصبح الصوت بالخارج أكثر خفوتًا، وهو ما زاد قلقي وخوفي، نهضتُ من جلستي

في محاولة لهزيمة الشعور بالنعاس الذي يراودني، قبضتُ على السكين، وأنا أتجول في الغرفة استعدادًا لأي أمر طارئ.

حين رأيت مقبض الباب يتحرك سقط السكين من يدي، وهرولت إلى سريري متدثرة بالغطاء، وأنا أرتجف، لكن صوت «أشرف» وهو يأمرني بفتح الباب أعاد إليَّ بعض الهدوء، نهضتُ لأبعد المقعد وأفتح التراس، سألني «أشرف» بغضب ولسان أثقلته المخدرات عن سبب غلق الباب:

- كنت أغيِّر ملابسي.

لماذا جبنتُ عن إخباره بالسبب الحقيقي؟ أم إنني أدركت أن معرفته بمخاوفي لن تغير من الأمر شيئًا؟ ولن تمنحني الطمأنينة التي أنشدها، في طريقه إلى السرير اصطدمت قدمه بالسكين الساقط مني على الأرض، نظر له بتعجُّب:

- ما الذي أتى بهذا السكين إلى هنا يا امرأة؟

تلعثمتُ لبرهة قبل أن أجيب:

- كنت أقشِّر بطاطس لعشاء «محمود».

لم ينتبه لكذبتي وهو يلقي بجسده على السرير، هرولتُ نحو الصالة لأتأكد من غلق باب الشقة بإحكام، وجدته مغلقًا كما كنت أتمنى، نظرت من الشباك ورأيت التاكسي الخاص بـ«جمال» يبتعد في نهاية الشارع، ساعتها فقط تنفست الصعداء وهدأ قلبي، مررتُ بحجرة «محمود» لأطمئنَّ على إحكام الغطاء حول جسده، ثم دخلتُ إلى السرير لأستسلم أخيرًا للنوم.

* * *

(ناهد)

جلستُ إلى مكتبي أمارس عملي بلا تركيز، جسدي هنا في المحكمة وسط ملفات القضايا وضوضاء المحامين وهرج المتقاضين، أما عقلي وقلبي وروحي فهم يحيطون بسرير ولدي في المشفى، عيني تنظر إلى الدفاتر والأوراق فلا أعي منها شيئًا، أسجِّل المواعيد والقرارات في الدفاتر بشكل آلي، تعمَّدت ألا أخرِج ملف قضية «الأستاذ» من الدولاب، وحبست تقريره في الدرج السفلي بعيدًا عن متناول يدي، أتت «هدى» لتجلس بجواري تسألني عن آخر أخبار حالة «إياد»، شرحت لها الموقف، وأنا أحبس دموع الحزن على ولدي، مصمصت شفتيها ثم أطلقت سيلًا من السباب في مستشفيات الحكومة، وألقت على مسامعي كل القصص التي سمعتها عن إهمال الأطباء، وتدهور حالات المرضى وسوء معاملة أهلهم، لم يكن ينقصني هذا الصداع، لم أعلق بالكثير، فقط بعض إشارات توحي بأني أتابع حديثها، وما يخفي عنها تشاؤمي من حكاياتها، قطعت الحديث فجأة لتسألني:

- مَن تلك الحسناء التي سألت عنك أمس؟

سيقتلك الفضول يومًا يا «هدى»، تشاغلت بدفاتري:

- معرفة.

مصمصت شفتيها للمرة الألف في لؤم، ثم نهضت متجهةً إلى مكتبها:

- سأتركك لعملك إذن.

أدركت من طريقة نطقها لجملتها الأخيرة أن سؤالها عن سكرتيرة «الأستاذ» كان الهدف الرئيسي من كل هذا الحوار، «إياد» يرقد في المستشفى منذ فترة، ولم تهتمَّ بالسؤال عنه طوال هذه المدة إلا بشكل عابر، فلماذا اليوم بالتحديد سألت بكل هذا الاهتمام؟

- كيف حالك يا مدام «ناهد»؟

أعرف هذا الصوت الناعم اللعوب، رفعت رأسي لأجد سكرتيرة «الأستاذ» في وجهي، ونظرات «هدى» وأذنها تسبقها:

- بخير.

نهضتُ، وأمسكتها من معصمها، وخرجتُ إلى الممر:

- أرجوكِ لا تزوريني بالمكتب مرة أخرى، ستلفتين الأنظار بهذه الطريقة.

شبكت ذراعيها أمام صدرها، ونبرة الاستعلاء تسيطر على كلماتها:

- توقّع «الأستاذ» زيارة منك، لكنها تأخّرت.

تلفتُّ حولي لأتأكد ألا يتطفل أحد على حديثنا:

- قريبًا سأفعل، لكن أرجوكِ انصرفي الآن.

قبل أن تردَّ وجدتُ «هدى» تتجه نحونا:

- أين مفتاح الحمام يا «ناهد»؟

نظرتُ لها في غيظ:

- على مكتبي يا «هدى»، ستجدينه في المقلمة.

سحبتُ السكرتيرة من يدها مبتعدةً بها نحو المصعد، وأنا أرفع صوتي كي تسمعني «هدى»:

- سيسعد «إياد» بسؤالك عنه حين يتماثل للشفاء.

همستْ وصوتها يحمل رنة تهديد واضحة:

- الوقت ليس في صالحنا معًا يا «ناهد»، الجلسة بعد أسبوعين، و«إياد» يحتاج للجراحة اليوم قبل الغد.

بادلتُها الهمس:

- قريبًا.. قريبًا إن شاء الله.

ثم تركتُها عائدةً إلى مكتبي لأجد «هدى» في انتظاري تبتسم ابتسامة صفراء:

- لم أجد المفتاح.

مددتُ يدي لأخرجه لها وأنا أبادلها نفس الابتسامة الصفراء:

- تفضلي.

- يبدو أنها معرفة وثيقة.

جلستُ إلى المكتب، وأنا أزفر بقوة من الغيظ، مما جعل «هدى» تنصرف من أمامي مسرعةً في صمت.

* * *

(١٣)

مؤلمة تلك اللحظات التي يخبو فيها الأمل في النفوس، ينسحب مصطحبًا معه شغف الإنسان للحياة، تاركًا روحه مجهدة، مستسلمةً، غير قادرة على المحاربة من أجل أي شيء، الأكثر إيلامًا أن انسحاب الأمل يترك مساحات فارغة بالنفس تسيطر عليها كل الذكريات الحزينة والأفكار السوداء.

بذور الأمل بطيئة النمو وتحتاج لرعاية مخلصة، أما بذور اليأس فهي تشبه النبت الشيطاني، ينمو في سرعة ملتهمًا كل حياة قريبة منه، لهذا حين تأخر عامل الصيانة في العودة إلى عربة السيدات، نمت بسرعة نبتة اليأس بينهن من جديد، وسكنتهن مشاعر الخوف والفزع مرة أخرى.

* * *

(منى)

حين انتصفت الشمس في وسط السماء استيقظتُ من نومي بجسد منهك، لم أتمكن من النهوض مباشرة، رنَّ هاتفي بعد صمت دام لأيام طوال، تناولتُه بكسل، قفز قلبي من الفرحة ودبَّ النشاط في أوصالي حين رأيت اسم مدام «يارا» على الشاشة، سارعتُ بالرد عليها وصوتي مفعم بالأمل والسعادة، تبادلنا عبارات التحية المعتادة في سرعة، طلبتني في عمل غدًا، وأخبرتها بأني سأكون موجودة مبكرًا كالعادة، انفجر النشاط في عروقي، فنهضت أنظّف البيت وأعيد ترتيبه، دندنتُ الأغاني وأنا أعمل في المنزل، استيقظ

«أشرف» من صوتي المزعج، سألني عن سبب هذه السعادة وهو في طريقه إلى الحمام، كدت أخبره، لكن الكلمات ماتت في حلقي، شيء ما في نفسي أوحى لي ألا أخبره، سيسهر الليلة كالعادة حتى ميلاد الفجر، وحين يستيقظ سأكون قد عدتُ إلى البيت، سأخبّئ عنه نقود الغد، مدام «يارا» سخية لن تمنحني أقل من مائتي جنيه، يحتاج «محمود» إلى منامة جديدة، وطعام جيد، حين خرج «أشرف» من الحمام لم يهتم بإعادة سؤاله عن سبب غنائي، دلف مجددًا في السرير، وتشاغلت عنه بتنظيف المطبخ، وسرعان ما غرق في بحر النوم مجددًا، في الليل أخبرته أني سأخلد إلى النوم مبكرًا، لم يهتم بالسؤال عن السبب، حرصت أن أعود إلى المنزل في أسرع وقت؛ حتى أضمن ألا يشعر بغيابي، اشتريتُ في طريق عودتي دجاجةً من أجل الصغير، سدَّدت لـ«أم علي» خمسين جنيها، فرحت بها، وبدَّلت وجهها المقلوب الذي تقابلني به دومًا بابتسامة، أخبرتني وهي تدسُّ النقود في صدرها أنه لا داعي للعجلة، وأنها تصبر على السداد؛ لمعرفتها بالحالة، بالطبع كانت كلمات من وراء القلب، لم أنسَ أن أشتري لـ«أشرف» علبة سجائر، حين استيقظ «أشرف» واشتمَّ رائحة الطعام دخل إلى المطبخ، وكشف أغطية الأواني، سألني من أين لي بثمن الدجاجة والخضار، أخبرته بأمر مدام «يارا»، وناولته علبة السجائر، طلب مني نقودًا، مددتُ يدي بعشرين جنيهًا هي صدقًا آخر ما تبقَّى معي من نقود، جذبها من يدي في غلظة، وهو يتبرم من إسرافي «تصرفين مائتي جنيه في دجاجة!!»، أريتُه المنامة الجديدة، وأخبرته بما سدّدت لـ«أم علي»، كنت أشعر به يبحث عن سبب للعراك؛ لأنه لم ينل مني ما يريد من نقود، صمتَ حين ابتسمتُ في وجهه بدلال، وهمست في أذنه أن يأكل جيدًا اليوم ولا يطيل السهر مع أصدقائه، فهم دعوتي، ولهذا آثر ألا يتعارك حتى لا يفوت

هذه الفرصة، خاصة وإني منعت نفسي عنه منذ ما حدث مع «جمال»، حين طفت هذه الذكرى على سطح عقلي تغيَّر وجهي، لكني عدتُ أتابع إعداد الطعام لأتناساها.

في الليل لم أشعر بالمتعة، وانتهى الأمر سريعًا، لكني على الأقل ارتحتُ لسقوط الحاجز النفسي بيني وبين «أشرف»، والذي كدَّر صفوي الأيام الماضية.

* * *

(إيمان)

«أنا وحدي من يحدد متى أخرج، ومتى أظل في المنزل، وإن كان يزعجك هذا الأمر، فعليكِ أن تتعلمي كيفية التأقلم معه.. اتفقنا؟»، تذكرت كلمات «أمير» أمس، إذن سرُّ تغيره هو العناد فقط، شعر بأنه يفعل ما أطلبه، وليس ما يريد هو أن يفعله، لهذا توقف فجأة عن فعله، وعاد إلى جلسات المقهى، أعلم أنه عنيدٌ للغاية، وأنه لا يحبُّ أن يفرض عليه أحد تصرفًا معينًا، هل أحاول استرضاءه مجددًا بطريقة مختلفة؟ أم أتركه حتى يشعر بأنه يتصرف بحريته؟ «أمير» عنيد ومتشبث برأيه، وأنا شخصيةٌ مستسلمةٌ في الغالب، معركة الصبر سينتصر فيها حتمًا، والمعارك المباشرة ستنتهي بفرض رأيه كالعادة، تملَّكتني الحيرة، كيف يُمكنني استعادةُ هذا الرجل؟ كنتُ جالسةً أمام التلفاز أشاهد فيلمًا قديمًا، فجأة سطعت في رأسي فكرة مجنونة حاولتُ طردها من عقلي، لكنها تشبَّثت بالوجود، هل يعرف «أمير» امرأةً أخرى؟ كيف

لم أنتبه من قبل لهذا الخاطر؟ «أمير» شخصية تملُّ الأشياء في سرعة، فلماذا لم يملَّ جلسة المقهى أو أصدقاءه مع تكرار مقابلتهم كل يوم؟ ربما لأنه في الواقع لا يقابلهم يوميًا، ويجالسهم يومًا أو يومين في الأسبوع فقط، وباقي وقته يقضيه مع امرأة غيري، هذا هو التفسير الوحيد لهذا التغيُّر المفاجئ، هل أراقبه لأتأكد؟ غير معقول، هذا يحدث في السينما فقط، يجب إذن أن أنتبه للإشارات، عطر غريب قد يخالط عطره، أو شعرة تعلق بملابسه دون أن ينتبه، علامات تركتها عشيقته على جسده، شهقتُ في فزع عند هذه النقطة تحديدًا، هل يتهرَّب «أمير» من علاقتنا الزوجية؛ حتى لا أنتبه لإنهاكه أو لعلاماتها عليه، سأجعل أيامه سوداء لو اكتشفت صحة هذا الشك.

الشكُّ خنجرٌ مسمومٌ، ثلِمٌ، لا يذبح، فيُزهق الروح في سرعة، لكنه يترك جرحًا غائرًا لا يندمل، ويبقى نازفًا أبدًا، باب على الجحيم فتحته بنفسي، لفحاته تُذيب عقلي من الألم، يقتادني إلى حافة الجنون في سرعة، لكنه يتوقف عند حافة الهاوية، فلا أسقط وينتهي الأمر، ولا أطمئنُّ من قلق الانزلاق إليها.

رسالة من «فارس»!

إنه حساب جديد بعد أن حظرتُ حسابه القديم من التواصل معي.

* * *

(ناهد)

شحَّت الكلمات بيني وبين «محمد» في الأيام الماضية، تغيَّر من ناحيتي، لم أرَ منه سوى نظرات العتاب منذ قصصتُ عليه أمر «الأستاذ»، توقَّف عن تقبيلي قبل النوم، لم يعد يعانقني عند عودته من الخارج، ولا يودِّعني لحظة خروجه، آلام روحه تطفو على وجهه بكل وضوح، عجزه عن تدبير أموال الجراحة يقتله، ألاحظ ذبول نفسه، ولا أملك أن أرويها لتزهر من جديد، أخبرني على العشاء أنه مرَّ على المستشفى اليوم، لم تُبلغني «زهرة» الممرضة بذلك، رفعتُ الأطباق من على المائدة، وذهبت لإعداد الشاي، سألني وأنا أضع الأكواب أمامه:

- ماذا فعلتِ مع المحامي؟

لماذا يفتحُ هذا الموضوع الآن؟ بم سأردُّ عليه؟ هل أخبره أن الباب ما زال مفتوحًا، وأني لم أمتثل لأمره بردِّ النقود؟ تهرَّبت منه بأن عُدت للمطبخ لغسيل أطباق طعام العشاء، لحق بي:

- لماذا لا تردِّين على سؤالي يا «ناهد»؟

التفتُّ ناحيته، لكني لم أستطع النظر إلى عينيه:

- لا شيء بعد.

وضع الكوب الشاي من يده، وخطا إلى الداخل حتى اقترب مني، مدَّ أنامله نحو ذقني؛ ليرفع وجهي، ونظر إلى عيني:

- هل تشكِّين في حبي لكِ أو لـ«إياد»؟

هززتُ رأسي نفيًا:

- هل تعتقدين أني لا أرغب في إجراء الجراحة الآن قبل الدقيقة المقبلة؟

مرة أخرى أشرتُ بـ«لا»، ضمَّني إلى صدره بقوة، وهو يتنهد بعمق:

- أرجوكِ يا «ناهد»، أنهِ هذا الأمر غدًا، لا تتركي لشيطانك بابًا ينفذ منه إلى ضعفك.

صمتُّ، لا أجدُ ما أردُّ به، خوفي على «إياد» يمنعني من طاعتك يا زوجي، وحبي لك يدفعني للامتثال إلى أمرك، كلا الأمرين يجتذبانني إلى طريق مضاد للآخر، وأنا أتمزق في مفترق الطرق، ربت ظهري ومسح عليه بحنان أذاب قلبي عشقًا له:

- صدقيني يا حبيبتي، أغلقي هذا الباب، وسيفتح الله لنا أبوابًا عدة حلًا لمشكلتنا، سيكون أرحم بنا من كل أهل الأرض، وسيرشد الحل إلينا قبل أن نبحث عنه.

لففت ذراعيَّ حول جسده، ودفنت رأسي في صدره.. أتعجب يا زوجي العزيز من صبرك الذي لا ينتهي، لديك يقينٌ لا أملك مثله، يسكنني نفس الفزع الذي يسكنك، لكنك أكثر ثباتًا مني، ربما لأنك لا تملك قلب أم، ولا تعرف أن أي أم قد تقدم روحها ذاتها من أجل أطفالها، فما بالك بما قد أقدمه من أجل وحيدي؟:

- لا تقلق يا «محمد»، أعدك أن أتصرف دون أن أغضبك.

- لا تهتمي لرضائي يا «ناهد»، اهتمي فقط لرضاء الله.

قالها في بساطة، طبع قبلة على جبيني، ثم تركني، وذهب إلى غرفة النوم.

* * *

(١٤)

جلست الفتاة ذات الشعر الأحمر الناري تعبث بهاتفها المحمول تحاول أن ترسل رسالة، لكن الشبكة الضعيفة داخل النفق لم تساعدها، أرخت جسدها على مقعد عربة المترو، أغمضت عينيها، وأراحت رأسها إلى الوراء، فكَّرت في طفليها، علاقتها بهما تقليدية إلى حد كبير، تنحصر في الإطعام والمذاكرة والتوجيهات طوال الوقت، اكتشفت أنها لا تصاحبهما، لا تعرف هواياتهما أو اهتماماتهما، لماذا نربي أبناءنا بطريقة التوجيه فقط طوال الوقت؟ لماذا لا نمنحهم حرية التجربة والوقوع في الخطأ مع قدر من المتابعة؛ حتى يكتشفوا بأنفسهم طريق الصواب؟ قررتْ لو أنها نجت من هذه المحنة ستغير طريقة تعاملها مع طفليها، ستصاحبهما، ستشاركهما أنشطتهما ولهوهما كما تشاركهما مذاكرتهما، ستجعلهما شريكين في قرارات حياتهما وليسا فقط منفذَيْن لإرادة أبويهما.

تعجبت أن الإنسان لا ينتبه لأخطائه غالبًا إلا حين يصبح الوقت غير صالح للتخلي عن هذه الأخطاء، يعاند الإنسان نفسه ويكابر في الدفاع عن وجهة نظره وفرض رأيه طول الوقت، ولا يعترف بأنه كان من الممكن أن يسلك طرقًا أخرى أفضل.

دعت الله في سرِّها أن تمرَّ هذه اللحظات في سلام حتى تملك فرصة التغير، دون أن تدري سالت دمعة على خدها، لكن الجالسة في المقعد بجوارها انتبهت لهذه الدمعة، ربتت على كتفها:

- ثقي برحمة الله، سيمر هذا الموقف على خير.

فتحت عينيها، والتفتت لها، ارتسمت على وجهها ابتسامة طمأنينة:

- إن شاء الله.

مدَّت السيدة يدها إلى حقيبتها، وأخرجت منها مناديل، ناولتها لذات الشعر الأحمر:

- تفضلي.. امسحي دموعك وادعي الله، فالدعاء يدفع البلاء.

لم تفهم ذات الشعر الأحمر السبب الذي أسكن الطمأنينة نفسها في هذه اللحظة وهي تردُّ على جارتها في المقعد بهدوء حقيقي:

- ونعم بالله.

شعرت برغبة في عناقها، في ظروف أخرى لم تكن لتمتلك شجاعة تنفيذ هذه الفكرة، لكنها في هذه اللحظة لم تبالِ، وعانقتها بالفعل وهي تبتسم بودٍّ.

* * *

(إيمان)

الحياة لا تمنحنا فرصًا أخرى إلا إذا كنا نستحق، ولقد منحت «أمير» أكثر من فرصة، لكنه لم يستثمر أيًا منها، لهذا قررت التوقف عن محاولة إيجاد طريق يجمعنا من جديد، حتى إني لن أحاول التأكد إن كان على علاقة بامرأة أخرى

أم لا؟ سأُسقِط أمره من حسابات حياتي، وأعيش لطفليَّ ونفسي، سأصبح مجرد زوجة، لن أطمع في ملء خانة الصديقة أو الحبيبة مجددًا.

رسالة جديدة من «فارس» تصلني، بعد أن تجاهلت الرسالة الأولى، ما زال مصرًا على معرفة سبب تغيري نحوه، ولماذا حظرتُ حسابه الأصلي من التواصل معي؟ فتحتُ صفحة الحساب الجديد، لم يكن به أي منشورات أو تفاعل، يبدو أنه فتحه خصيصًا من أجل التواصل معي، دائمًا يجذبني إصراره، ورغبته المستمرة أن يبقى ضمن دائرة اهتماماتي، غريب أمر الرجال، يسعون بكل قوة لامتلاك قلب امرأة ما، وما أن تسلمه له حتى يهمله، فيضع الرجل قلب المرأة على أرفف ممتلكات حياته، وحين يغطيها تراب القسوة يتعجب ويتساءل، لماذا تحجَّر قلبك؟

سأُبقي «فارس» ضمن الدائرة الرمادية، لا يعلم تحديدًا إن كان صديقًا أم حبيبًا؟ هكذا يبقى شغفه في إرضائي، ولهفة الاهتمام لن تخبو، البعض يفعلن ذلك، لا ينجرفن إلى علاقة حقيقية ولا يغلقن الباب بالكامل، يتركن بعض الضوء يتسرب من نوافذ حياتهن، فيظن الرجال في الدائرة الرمادية أن هناك فرصة ما قد تولد ذات يوم بينهما، إذن فلنلهُ لبعض الوقت يا «فارس»، ستحاول أن تمتلكني، ولن أعدِمَك الأمل.

في الصباح أرسلت له رسالة مختصرة أعتذر فيها عن حظر حسابه، وأطلب منه أن يتفهم أني قد لا أتمكن من شرح الأسباب، بعد نصف ساعة وردني رده: «كنت أخشى أن أكون قد أسأت التصرف، لن ألحَّ عليكِ في معرفة السبب، يكفيني أنك بخير»، تعمدت ألا أرد عليه مباشرة، كما تعمدت أيضًا ألا

أسأل «أمير» حين قرر الخروج: «متى تعود؟»، ستتغير طريقة معاملتي لكليهما، سأضع يدي على المقود، ولن أترك سيارة حياتي يوجِّهها غيري.

* * *

(ناهد)

- حالة «إياد» تسوء عما سبق يا أستاذ «محمد»، أتمنى أن تعجلوا تدبير النقود.

هكذا قتلت كلمات الطبيب كل مقاومة في نفسي زرعها «محمد» بخصوص استبدال تقارير قضية «الأستاذ»، أمسكت ذراع زوجي أستند عليه، تركنا الطبيب وانصرف لشئون مرضاه، زجاج غرفة العناية المركزة مسدل الستائر، فلم أتمكن من رؤية «إياد»، حاول «محمد» أن يجذبني بعيدًا لننصرف، لكنني قاومته وأنا أترجَّاه باكية أن يدَعني أنتظر لبعض الوقت لعلهم يرفعون الستائر وأنظر إليه، تركني واتجه نحو الاستراحة، سألت «زهرة» الممرضة متى ستُرفع الستائر، أخبرتني أن ذلك غير ممكن في الوقت الحالي، توجَّهت نحو الاستراحة أجرُّ قدميّ، كان «محمد» يتحدث عبر الهاتف، لم أسمع تحديدًا ماذا يقول، لكن ملامح وجهه كانت متوترة، ولاحظت أن قبضة يده مضمومة بشدة، دليل عصبيته، منذ توقف عن التدخين من أجل توفير مال السجائر لعلاج «إياد» وقد أصبح أكثر عصبية، أنهى مكالمته واصطحبني إلى المنزل، كنا في الصباح متوجهين إلى العمل لولا اتصال «زهرة» الذي غيَّر

وجهتنا إلى المستشفى بناءً على طلب الطبيب، حين دخلنا إلى الشقة نزعت طرحتي في عصبية:

- اسمع يا «محمد».. أنا لن أقف مكتوفة اليد أكثر من ذلك، ولدي يموت رغم أني أستطيع تدبير المال.

جلس «محمد» على الأريكة في الصالة، ألقى رأسه إلى الخلف وأحاط جبهته بيده اليمنى، وكأنه يعاني من الصداع، خرجت منه الكلمات بهدوء عكس ما توقعت:

- المال الحرام لن يحل المشكلة يا «ناهد».

قبل أن أردَّ عليه اعتدل في جلسته، وهو يصرخ في وجهي بشكل أفزعني:

- كم مرة عليَّ أن أخبرك بذلك؟

تركته وتوجهت نحو غرفة «إياد»، وصفقت الباب بعنف وأنا أصرخ في فراغ الغرفة:

- فلتتحدث كما تشاء يا «محمد»، أما أنا سأتصرف.

دفع الباب بقوة، واقترب بخطوات واسعة، وجهه أحمر وعروقه نافرة، صوته عالٍ، ويتطاير الزبد من شدقيه:

- سيكون هذا آخر ما بيننا يا «ناهد»، هل تفهمين؟

غادر البيت بعدها، تناولت حقيبة يدي، وقلبت محتوياتها على سرير «إياد»، أخذت أبحث عن بطاقة العمل الخاصة بالأستاذ، سأتصل به وأخبره أن ينتظرني غدًا مساءً ومعي التقرير، وعليه أن يجهِّز باقي المبلغ، هذا قراري النهائي، لم أجد البطاقة، وهو ما زاد عصبيتي، وجعلني ألقي الحقيبة على الأرض بقوة، لا مشكلة، لا داعي للاتصال، سأستبدل التقارير وأذهب إليه غدًا، لكني لن أمنحه التقرير الأصلي إلا إذا دفع لي كل ما اتفقنا عليه.

* * *

(منى)

نفدت النقود من جديد، أنفقت الجنيه الأخير منذ دقائق لشراء الإفطار، عائدة إلى المنزل، وأنا أعيش حالة من الرعب، ماذا سيفعل «أشرف» هذه المرة؟ كيف سأتصرف إذا أرسلني إلى «جمال» مرة أخرى للاقتراض؟ إنه يعرف الثمن، يدرك ماذا يريد «صاحبه» مقابل هذه الأموال، يفهم تمامًا أنها ليست نقودًا مجانية، وأنها ليست قرضًا، بل هي ثمن لسلعة، وللأسف هذه السلعة هي أنا، لن أقبل تكرار الأمر مهما كانت الضغوط، ولو حتمت الظروف سأترك البيت.

أغادر؟ إلى أين؟ لا مأوى لي في هذه الحياة سوى تلك الجدران، لا ملجأ لي أهرب إليه من نوائب الدهر وضربات القدر، معركتي خاسرة قبل أن تبدأ، لا جيش لي أحتمي به، وفارسي يقدِّمني وجبة للذئاب ينهشون شرفه قبل لحمي، ليتني أموت، فالموت راحة والحياة شقاء، رغمًا عن إرادتي ارتسمت

ابتسامة ساخرة على شفتيّ، من قال إن الموت راحة!! ماذا قدمتُ لموتي؟ ليس لي من عمل صالح يجعل قبري مريحًا أو يضمن لي الجنة، رفعتُ نظري إلى السماء وعيوني كلها رجاء، لكن هناك رحمتك يا اللّٰه، ألم تسعْ كل شيء؟ حتمًا ستسَعُني، أليس كذلك؟

صعدت درجات السلم في عجلة، «محمود» جائع وينتظر الطعام، طرقتُ الباب، فهرول يفتح لي، لم يمهلني حتى أدخل، اختطف الأرغفة القليلة من يدي و«قرطاس الطعمية»، وجلس على الأرض ليأكل:

- أين أبوك؟

لم يبتلع ما في فمه:

- نائم.

اقتربتُ منه وغيظي يكاد ينفجر:

- ألم أخبرك من قبل ألا تتحدث والطعام في فمك؟ هذا سلوك أولاد الشوارع، وأنت لست منهم، ولن تكون، هل تفهم؟

توقف الصغير عن الأكل وهو ينظر لي بخوف ممسكًا رغيفه، هزَّ رأسه علامة الفهم، شعرت بوخزة في قلبي أن أفزعته إلى هذا الحد، جلست بجانبه واحتضنته:

- اسمعني جيدًا يا «محمود».. كل ما أتمناه في الحياة أن أراك رجلًا مهذبًا، تحمل شهادة عليا، تشغل وظيفة محترمة، لا أريد لحياتك أن تستمر في هذا

الوحل، يجب أن نحارب معًا كي ننجو منه.

ربت الطفل فخذي، ومد يده بقرص من الفلافل نحوي:

- أعدك يا أمي.. سأكون أفضل من أبي، ومن كل سكان الحارة.

* * *

(١٥)

انتشرت على المواقع الإخبارية تفاصيل ما حدث في المترو بشأن واقعة الانتحار، نشر الجميع ما كتبته المنتحرة على صفحتها الشخصية بـ«الفيسبوك» قبل الانتحار بيوم واحد، تعتذر لأسرتها وأصدقائها؛ لأنها لم تعد تمتلك القدرة على مواجهة الحياة، تعلن هزيمتها أمام مشاكلها، ثم منشور قصير قبل الانتحار بدقيقة، امتلأت صفحتها بعدد كبير من المنشورات لأصدقاء يترحمون عليها، تعاطف معها عدد كبير من متابعي الخبر، في نفس الوقت هاجمها آخرون، واشتبكوا في سجال مع من يدعون لها بالرحمة؛ لأنها ماتت كافرة، لم يعد يمر خبر دون أن ينجرف الجميع إلى التعليق عليه، ونشر وجهات نظرهم فيه دون حتى أن يلمُّوا بتفاصيل ما حدث، كثيرون ممن تعاطفوا أو هاجموا لا يعلمون شيئًا عنها، ولا عن ظروفها التي دفعتها لهذا القرار، ورغم ذلك تعاملوا مع الخبر وكأنهم عالمون ببواطن الأمور، قليلون هم من تعاملوا مع المبدأ، وتحدثوا عن فكرة الانتحار في ذاتها دون أن يحكموا على شخص المنتحرة.

«سامحوني واغفروا لي، لعلي أنال منكم بعد موتي محبةً لم أنلها في حياتي».

رسالتها القصيرة لمست قلوب الكثيرين، لكن موجةً من الجدل اندفعت تجتاح عالم التواصل الاجتماعي حين علَّق أحدهم: «كان أولى بكِ أن تطلبي المغفرة من الله، وليس من متابعي صفحتك بدلًا من الموت على كفر، عليكِ من الله ما تستحقين»، سارع العديد لمهاجمته؛ لأنه تدخَّل في علاقتها بربها،

واتهمه آخرون بأنه يبحث عن شهرة على حساب جلال الموت، ودافع عنه المئات، وتحزَّب كل فريق لوجهة نظره، واشتعلت بينهم حرب كلامية عنيفة.

* * *

(إيمان)

ضئيلةٌ هي الفرص التي تمنحها لنا الحياة لنعيش كما نريد، وليس كما أراد لنا الآخرون، نادرون هم من يقتنصون الفرصة قبل أن تهرب من أيديهم، أما الصفوة فهم من يخلقون هذه الفرصة.

قررتُ أن أكون من صفوة الصفوة، فلن أكتفي بخلق فرصة كي أعيش كما أريد، بل أن أجعل هذه الفرصة مناسبة تمامًا لكل ما أرغب في تجربته مع الحياة، سأجعل من «فارس» بوابتي إلى عالم أحياه كما أحب، سأصنع لنفسي عالمًا موازيًا سيختلف حتمًا عن عالمي الحقيقي، سأكون فيه صاحبة القرار، والكلمة الأخيرة، سألعب هنا دور الأم والزوجة، بينما هناك سأكون الجالسة على العرش.

قمتُ بتغيير صورة حسابي على «الفيسبوك» إلى صورتي الحقيقية، فوصلتني رسالة من «فارس» بها كلمات إعجاب، لم أردَّ عليه سوى بابتسامة، وكلمة شكر واحدة، فاندفع يتحدث عن جمالي ورقَّتي، وكيف أنه تخيل كثيرًا شكلي، لكن الصورة جاءت أروع مما دار بخياله، هكذا هم أغلب الرجال، إذا منحتهم قطرات قليلة من ماء الودِّ، ظلوا ظمأى وحاموا طويلًا حول بئرك، أما إذا ارتوا رحلوا، لقد ارتوى «أمير» حتى شبع، لعله الآن يحوم حول بئر أخرى،

ربما سيعود إذا حرمته ماء مودتي وحبي ليشرب من جديد، وربما اكتفى، لا أعلم، ولم أعد أهتم، لن يشرب من بئر قلبي بعد الآن سوى طفليَّ.

* * *

(منى)

لم يحضر أحد من أصدقاء «أشرف» الليلة، ولم يخرج هو من البيت، لهذا هدأ قلبي بعض الشيء، لكني أخشى الغد، أخشاه كما يخشى الناس الموت، إن مرَّت الليلة بسلام، فماذا عن الغد؟ أو بعد الغد؟ أو ما يليه من أيام؟ جلس «أشرف» يشاهد فيلمًا في صمت مقلق، تتجه عينه نحو التلفاز، لكنه شارد، لو أني أملك القدرة على قراءة الأفكار لاقتحمت عقله بلا تردد، فقلقي الحقيقي ينحصر الآن في أفكاره، ماذا ينوي أن يفعل؟ مرَّت ساعتان دون أن يطلب كوبًا من الشاي، لم يتحرك من مكانه، لا يبعد عينيه عن الشاشة حتى في الفواصل الإعلانية، نام «محمود» وهو يشاهد مع أبيه الفيلم، حملته إلى غرفته وذهبت إلى المطبخ أصنع كوبين من الشاي، يجب أن أتحدث معه لأكتشف فيمَ يشرد، ارتديت جلبابًا نظيفًا، ثم جلست بجواره ملتصقة به، ناولته كوب الشاي، فمدَّ يده في صمت:

- لم يعد في البيت نقود أو طعام.

تنهَّد، ثم وضع الكوب على المنضدة..

- لماذا لا تردَّ عليّ يا «أشرف»؟

نظر نحوي، ثم أحاط كتفي بذراعه، وجذبني إلى حضنه:

- فرج الله قريب.

ثم ربت على كتفي وعاد إلى صمته، أرحت رأسي على صدره، كانت دقات قلبه متسارعة وأنفاسه غير منتظمة:

- ماذا سنفعل؟

سحب قدرًا كبيرًا من الهواء قبل أن يجيب بصوت خفيض:

- لقد حاولت أن أقترض بعض المال من «جمال»، لكنه رفض، وطالبني بسداد الدين القديم أولًا.

حمدتُ الله بيني وبين نفسي لرفض «جمال» إقراضه المال، هذا يعني لي الكثير من الراحة، قبلت خده:

- لديَّ فكرة يا «أشرف».

لم يبعد نظره عن التلفاز، وهو يسألني:

- ما هي؟

اعتدلتُ في جلستي لأواجهه، ورسمت على وجهي ابتسامة هادئة:

- إذا كنت لا تريد العودة إلى العمل في ورشة «الأسطى حمودة»، أو إلى مهنة الميكانيكي عمومًا، لماذا لا تعمل سائق تاكسي؟

خرجت منه ضحكة قصيرة ساخرة:

- ألا تظنين أني قد حاولت؟ لقد طلبتُ من جميع معارفي وردية على سياراتهم، والجميع تعلل واعتذر.

لم أردَّ، وجهت نظري نحو التلفاز، وتناولت كوب الشاي أرتشف منه:

- أنا لست فرحًا بجلستي في المنزل يا «منى»، لكن سابقتي ستطاردني دائمًا، لو استوقفني أمين شرطة في أي كمين....

لم يكمل جملته تاركًا لي فهم الاحتمالات، كيف إذن يعيش كل من خرج من السجن؟ أيجلسون جميعهم في البيت بلا عمل؟ إنه غير جاد في البحث، كنت أوقن هذا، أدرك أنني أنفخ في قربة مقطوعة، لا أمل فيه، تركت كوب الشاي من يدي، ونهضت متجهةً إلى غرفة النوم، استلقيت على السرير كمدًا وأنا أحمل همَّ الأيام القادمة.

* * *

(ناهد)

أخيرًا تغلَّبت على جبني، أخرجت التقرير الأصلي من ملف القضية، ووضعته في حقيبة يدي، فتحتُ الدرج لأخرج تقرير «الأستاذ» وأضعه في الملف، بحثت عنه كثيرًا، وقلبي يكاد يتوقف من القلق، لا أجده بين الأوراق التي وضعتها هنا، أعدتُ البحث مرة أخرى، فتحتُ باقي الأدراج حتى وجدتُه، قرأته مجددًا وكأني أمنح نفسي عذرًا أن التقرير لا يلقي التهمة على آخرين،

هو فقط ينفيها عن المتهم، لن يتأذى أحد، بل سيستفيد الجميع، «إياد» و«المتهم» و«الأستاذ»، الأمر سهل بلا شك، ضمير «محمد» فقط مستيقظ أكثر من اللازم، حين تذكرت «محمد» طاف بعقلي سؤال، هل حقًا لن يتأذى أحد من استبدال التقارير؟ أنا أؤذي زوجي وعشرة عمري، أؤذي نفسي أيضًا.. لكني أنقذ «إياد» من الموت.. تسارعت دقات قلبي، وتقاطر العرق على جبيني، هل يُهزم الموت؟ لو قدَّر الله أن يزور الموت ولدي في ساعة محددة، فلا أنا ولا الأطباء ولا نقود «الأستاذ» قد تنقذه، وحتى لو أجريت له الجراحة، من يضمن أن تنجح العملية ويعيش ولدي، الجراحة في المخ، مكان حساس وصعب، ماذا لو أن مشرط الطبيب تحرك ملليمترات زائدة عن المطلوب، وعاش ولدي معاقًا؟

كاد عقلي أن يشتَّ مني، متاهة الاحتمالات لن تنتهي، ولو دخلتها لن أخرج منها لباقي عمري، هناك ألف سؤال يبدأ بـ«ماذا لو»، وكل سؤال سيحمل في رحم إجابته سؤالًا جديدًا.

أعدتُ التقريرين إلى الدرج، وأحكمت غلقه، وضعت رأسي على المكتب وعقلي يكاد ينفجر بشلال الأفكار التي اندفعت في جنباته حتى أصابني الصداع، شعرت بيدٍ تربت كتفي وصوت «هدى» يصلني مشوشًا:

- ماذا بك يا «ناهد»؟

حاولتُ أن أرفع رأسي فلم أستطع، أجبتها وأنا ما زلت منكفئة على المكتب:

- أشعر بصداع قاتل يا «هدى»، لا أقوى على رفع رأسي وكأني شُلِلت.

ابتعدت لبضع ثوانٍ ثم عادت تحمل حقيبة يدها، سمعتها تعبث بداخلها:

- معي مسكِّن قوي، تناولي منه قرصًا.

ساعدتني على رفع رأسي، وناولتني الدواء، ثم رفعت إلى فمي زجاجة الماء:

- ألف سلامة.. إن كنتِ لا تستطيعين الاستمرار اليوم، سأستأذن لكِ من الأستاذ «فتحي» للانصراف، متأكدة أنه لن يمانع؛ فهو يعرف الظروف.

أسبلت جفني موافقة على اقتراحها، نادت الساعي وطلبت منه أن يستوقف لي تاكسي، ناولته ورقة نقدية:

- حاسبه، ولا تدع مدام «ناهد» تدفع.

لم أتمكَّن حتى من شكرها، ساعدتني بصحبة زميلة أخرى حتى أوصلتاني إلى التاكسي، بعد أن تحرك طلبت منه أن يتجه إلى المستشفى، لا بد أن أرى «إياد» وأطمئن عليه.

* * *

(١٦)

السعادة تدفع الزمن للتسارع، أما الحزن فيجتذبه للتباطؤ، بينما الخوف يمنحنا شعورًا مختلفًا بالوقت، نتمنى أن يمر سريعًا حتى تنتهي لحظات فزعنا، وفي نفس اللحظة نخشى أن يمر الوقت؛ خوفًا من مواجهة ما هو أسوأ مما نواجهه بالفعل.

هناك لحظات يتعطل فيها عقل الإنسان عن العمل، مواجهة المجهول إحداها، لا تعلم أي من راكبات المترو ماذا سيحدث بعد قليل، هل يتم إنقاذهن أم سيواجهن الموت؟ لهذا مر الوقت عليهن ببطء قاتل، يقولون إن وقوع البلاء أفضل من انتظاره؛ لأن الخوف يغيِّر من طبيعة الإنسان، يجعله شرسًا وعدوانيًا، أو جبانًا مستسلمًا مشلولًا عن التفكير، الخوف عدو يدفعك لتدمير نفسك قبل أن يجهز عليك بكل سهولة.

لو أن الخوف تجسَّد في عربة السيدات في هذه اللحظات لوقف مبتسمًا مستمتعًا بما يفعله في الراكبات، يده تعتصر القلوب وتنتزع الأرواح في عذاب، يتغذى على الأنفاس المضطربة القلقة، ينمو مرْوِيًّا بدموع فزعهن، وبجواره الموت في انتظار الحصاد بعد أن ينهكهن الفزع، وينتهك أرواحهن.

على المقاعد والأرض تراصَّت أجساد وهنة تسكنها أرواح مرتعبة ونفوس منهكة، أوجه متعرقة مكدودة، صبغها الخوف بلونه الأصفر المفضل، والصمت يحكم قبضته بقوة على الجميع، لا يجرح وجهه سوى همسات خافتة سرعان ما يتلاشى صداها وتموت على عتبات الشفاه.

* * *

(منى)

أيقظني «محمود» قبل غروب الشمس بقليل يطلب مني طعامًا، نهضتُ من سريري وارتديتُ عباءتي دون أن أغسل وجهي، ذهبت إلى «أم علي» واشتريتُ منها بضع بيضات وقطعة جبن على الحساب، كدتُ أقبِّل يدها حتى وافقت، دونَتْ في النوتة الخاصة بها الحساب، ثم رفعتْ وجهها نحوي قبل أن أنصرف:

- هذه آخر مرة يا «أم محمود»، سددي لي ولو مائة جنيه، أنا في حاجة لشراء بضائع، والتجار لا ينتظرون نقودهم مثلما أصبر عليكِ.

حاولتُ جاهدة أن أرسم ابتسامة على وجهي؛ لأطمئنها:

- إن شاء الله يا «أم علي»، فرجه قريب يا أختي.

أسرعت بالانصراف حتى أطعم «محمود» قبل أن يستيقظ «أشرف»، فخمس بيضات وقطعة جبن لن تكفي ثلاثتنا، الأهم عندي أن يأكل الولد، لاحقتني كلماتها:

- لا تنسيْ يا أم «محمود»، مائة جنيه على الأقل.

هرولتُ نحو المنزل، فوجدتُ الحاج «نبيل» صاحب البيت جالسًا على بابه يدخن الشيشة بصحبة مجموعة من الرجال، ومن الواضح أنهم يتحدثون في

شأن مهم، رغم ذلك لحق بي في المدخل، استوقفني وسألني عن «أشرف»، وطلب مني أن أخبره أنه يريده في أمر مهم، حاولت أن أفهم منه ما هو، لكنه اكتفى بأن طلب مني ألا أقلق؛ فهو لن يطردنا من الشقة، كل ما في الأمر أنه وفر له فرصة عمل، ويريده لشرح الأمر له، فرحتُ وكدتُ أطير من السعادة، شكرتُه ودعوتُ له، ابتسم وهو يجيب:

- في الحقيقة لو لأجل «أشرف» ما سعيت، ولكن لأجل الصغير ونقود الإيجار.

انصرف، وهرولت صاعدة نحو الشقة، أعددتُ الإفطار للصغير في سرعة، وكوب من الشاي، ودخلت إلى «أشرف» الحجرة؛ لأوقظه، قصصتُ عليه ما قاله الحاج «نبيل»، نهض وغسل وجهه وارتدى ملابسه، ونزل إليه وأنا أدعو له بسعة الرزق، انتظرتُ على أحرِّ من الجمر حتى عاد، لم يكن على وجهه ما يدل على أن الاتفاق قد تم، جلس صامتًا، فبادرته بالسؤال عن التفاصيل:

- شقيق الحاج «نبيل» اشترى «توك توك»، وسيعمل عليه وردية الليل، ويريدني أن أعمل عليه وردية النهار.

جلستُ بجواره فرحة:

- ربنا يرزقك يا «أشرف»، لكن ما لي أراك غير سعيد؟

ربت فخذي:

- كيف سأعمل بالنهار، وأنا أستيقظ قرب المغرب؟ لو أنه منحني وردية الليل لكان أفضل.

التهبت أعصابي من كلماته، لكنني قررتُ أن أتماسك:

- أكل العيش يحب الخفة يا «أشرف»، فلتعمل بالنهار ما دام سيدرُّ علينا هذا العمل دخلًا حلالًا.

هزَّ رأسه في هدوء:

- ربنا يسهل.

أضفتُ في محاولة لإقناعه:

- عملك في النهار أفضل، في الليل تنتشر الكمائن والمخبرون أكثر.. النهار له عينين يا «أبا محمود».

* * *

(ناهد)

في المساء بعد عودتي إلى المنزل جلستُ في الصالة أعيد التفكير في مسألة استبدال التقارير، أوقن أن اللّٰه غفور رحيم، أظنه سيغفر لي خطأي؛ لأن الاختبار أصعب كثيرًا من النجاح فيه، وسيشفي «إياد» برحمته لا بنقود «الأستاذ»، لو أني أملك سبيلًا أخرى لطرقتها، لكن الطريق الوحيد المتاح أمامي الآن هو هذا الذي أخشاه، سيتلوَّث ثوب نزاهتي في هذا الطريق، لكن أليس الاستغفار يمحو الذنوب؟ شعرت بداخلي برغبة شديدة في الرجاء لله أن يدلني إلى حل، أي حل يمكِّنني من استعادة ابني من الغيبوبة التي طالت،

من رقدته في غرفة العناية المركزة بعيدًا عن حضن أبويه وأصحاب مدرسته، نهضت لأدخل غرفة «إياد»، عند الباب رأيت طيفه يلهو بألعابه المتروكة أرضًا كما هي، يمسك سيارته ويسابق مجهولًا، ويتفوق عليه، فينهض رافعًا ذراعيه محتفلًا بفوزه الوهمي، متى أراك يا حبيبي تحتفل بفوزك على السرطان؟ خطوتُ إلى حيث السيارة وأمسكتها، حركتها قليلًا للأمام، ثم دفعتها بقوة لتجري في الغرفة وتختبئ تحت السرير، وفي أذني تتردد صوت ضحكات «إياد» وهو يقول لي من بين ضحكاته:

- ليس هذا الاتجاه الصحيح يا أمي، لقد ضاعت منك السيارة بهذه الطريقة.

ابتسمتُ وأنا أزحف إلى تحت السرير لإحضار السيارة، بينما دمعاتي تنزلق في هدوء على وجنتي، أمسكت السيارة ورفعتها إلى فمي لأقبِّلها:

- لا تحزني لوحدتك يا سيارتنا العزيزة، قريبًا ستسابقين الريح مع «إياد» وتفوزان، حتمًا ستربحان سباقكما.

سمعتُ صوت الباب، فعلمت أن «محمد» قد عاد، قبل أن أخرج من الغرفة، كان «محمد» على بابها، سألني:

- ماذا تفعلين؟

ألقيت نظرة خاطفة نحو السيارة، ثم ابتسمتُ لـ«محمد»:

- دقيقة وسيكون العشاء جاهزًا، غيِّر ملابسك حتى أنتهي من إعداده.

تحركت في المطبخ في خفة، وكأن «إياد» قد شُفِي وعاد إلى المنزل، ودون وعي مني وجدت أني وضعت على السفرة ثلاثة أطباق بدلًا من طبقين، نظر «محمد» نحو الصحون، ثم رفع رأسه نحوي، وفي لحظة وجدته يحتضنني ويبكي، كانت دموعه حارة، ونشيجه يقطع نياط قلبي، ربتُّ ظهره وأجلسته على الأريكة:

- اطمئنَّ يا «محمد»، سيشفى «إياد» بإذن الله، ويعود إلينا بكل صحة وسلامة.

في الحقيقة لم أدرِ ما مصدر هذا اليقين الذي غمرني، لكني بتُّ هذه الليلة مبتسمةً لأول مرة منذ غاب عني حبيب روحي «إياد».

* * *

(إيمان)

منذ قررت خوض غمار اللعبة مع «فارس» وشيء خفي تغير في روحي، لا أدري بالضبط ما هو، لكني أشعر أني لست نفس الشخص الذي كُنته منذ أيام قليلة، لست «إيمان» نفسها التي آمنت أن الحياة ممكن أن تعطينا أفضل وجوهها طالما منحناها أفضل ما نملك، لست نفس المرأة التي كانت تتمنى رضاء زوجها وحبه وحنانه، أصبحت لا أهتمُّ إلا لذاتي وطفليّ فقط، كنت أنظف البيت وأعطر أركانه وأطهو الطعام وأصنع الحلوى لصغيريَّ ونفسي، لم أعد أهتم أن يجد «أمير» الطعام شهيًا أم لا، ورغم ذلك لم أكن سعيدة، أشعر بشرخ يتنامى في روحي، لا أستطيع تحديد مكانه بالضبط ولا حجمه، لكني

أحسه يتزايد ويتوغل، كنت أبتسم كثيرًا في الأيام الأخيرة، أضحك بصوت أعلى، أبالغ في هندامي وزينتي رغم بقائي في المنزل، ألهو أكثر مع «سما» و«أحمد»، وكأني بهذه التصرفات قد أداري الشرخ، لكني ما زلت أشعر به، بوصلة نفسي تنحرف عن مكانها الطبيعي وترشدني إلى وجهة مغايرة، لكني أتبعها على كل الأحوال وكأن نهاية الرحلة لم تعد تعنيني، وكأن الرحلة ذاتها أصبحت هي الهدف وليس شيئًا آخر، سواء انتهت رحلتي في بستان السعادة الذي حلمت بأن أصل إليه، أم وجدت نفسي في صحراء قاحلة، لم أعد أهتم، ولا أجد فرقًا كبيرًا في النهاية، طالما كانت تلك هي النهاية، فلتكن كيفما اتفق، وعليَّ أن أستمتع بالرحلة ذاتها، مع نفسي وفقط.

هذه الليلة حين عاد «أمير» من جلسة المقهى تودَّد إلي، فهمت ما يريد، لبَّيته بصخب، لكن روحي لم تستمتع، نفسي لم تشبع، كنت كمن يشاهد ما يحدث على شاشة التلفاز، ينفعل ويتفاعل، ورغم ذلك يدرك بداخله أن ما يراه ليس الحقيقة، بل هو تمثيل محترف يدفعك لأقرب درجة من التصديق، لكن هناك في آخر ركن من وعيك تدرك أن هذا ليس الواقع، حين انتهى احتضنني في سابقة نادرًا ما تحدث، أغمضت عيني وانكمشت بين ذراعيه، أحكمت جفنيَّ كي أحبس دمعات تقاتل من أجل الخروج، الشرخ يتسع.

مركب صغير ذو شراع أبيض كبير يتهادى على صفحة النهر الصافية المتلألئة، أتمدد بداخله في ظل شراعه، الريح الخفيفة تدفعه على غير هدى، لكني مبتسمة وسعيدة، فجأة تزدحم السماء بغيوم رمادية تمطر مطرًا ثقيلًا، تتبدل نسمات الريح إلى عاصفة غاضبة، يصفع البرق وجه السماء، ويصم الرعد سمعي، أفزع، أحاول أن أستنجد بأي أحد، لكن الشاطئ خالٍ من الناس،

تزداد الريح غضبًا والأمطار قسوة، يصل البرق إلى صفحة الشراع، فيحرقه حتى يتهاوى الساري فوق رأسي و...

أستيقظ فزعة وأنا أرتجف، حلقي جافٌّ مثل حطب المدفأة، جسدي وهن، تناولت زجاجة الماء من جواري، شربت جرعة واحدة، ولم أقو على ابتلاع الثانية، دقات قلبي تتلاحق وأنفاسي تتسارع، أسندت ظهري إلى حافة السرير، ورفعت يدي إلى وجهي أجفف عرقي، نظرت نحو «أمير» لأجده غارقًا في النوم، ولا يشعر بي، لماذا لم تعد تحس بما يتغير داخلي يا زوجي العزيز؟ لماذا نبتعد وتسرق كل منا دوامته في اتجاه بعيدًا عن الآخر؟ لِمَ لم تسبح باتجاهي حين فعلتُ أنا؟ واستسلمتَ لدوامتك وتركتني أستسلم الآن لدوامتي.

توجهتُ نحو الحمام، فتحتُ الماء الدافئ، وتمددت في المغطس، تاركةً الماء ينهمر على جسدي، أسبلت جفنيّ، واستمتعت بقطرات الماء وهي تربت بشرتي في حنان، تشيع الدفء في جسدي، يعلو الماء حولي ويحتضنني، يحتويني، حين ارتفع الماء بقدر مناسب أغلقت الصنبور، وتركت جسدي يمتص الراحة التي يبثها الماء الساخن في خلاياي.

* * *

(١٧)

هل يغير الرضا شيئًا من أقدارنا؟ أم يغير من نتيجتها؟ هل الصمت رضا أم استسلام؟ صمت راكبات عربة السيدات في هذه اللحظة رضا بما يواجهْن أم استسلام له؟ هل تحلم العيون المغلقة بالخروج من المحنة؟ أم تستعد للموت؟ بعض الأجساد التي ترتجف، هل خوفًا أم مقاومةً؟

#انقذوا_عربة_السيدات

لم تتصوَّر طالبة الهندسة أن هذه الأسطر القليلة التي نشرتها على موقع «الفيسبوك» ستنال كل هذا القدر من التفاعل، خلال دقائق تمت مشاركة هذا المنشور مئات المرات، وردتها التعليقات المستفسرة، فشرحت للسائلين ما يحدث في النفق منذ واقعة الانتحار، وفي دقائق كان الجميع يعرف بأمرهن.

أخبرت جميع الراكبات بما فعلت وعادت ابتسامات الأمل تولد من جديد، ينهزم اليأس في نفوسهن، ينسحب الصمت تاركًا خلفه ثرثرات النساء، والجميع يتساءل عما يحدث في الدقائق المقبلة.

سرعان ما انتشرت على موقع «الفيسبوك» الدعوات للتحرك لنزول الشباب إلى النفق؛ لإنقاذ المحبوسات داخل عربة السيدات، وأصبح الجميع يضيف إلى منشوراته وسم # **انقذوا _ عربة _ السيدات**.

* * *

(ناهد)

هذه المرة نجحت، نجحت في التغلب على ضعفي وخوفي، هزمت ترددي، أسكتُّ صوت «محمد» المستمر داخل عقلي، استبدلت التقارير، واحتفظت بالتقرير الأصلي في حقيبة يدي، أعدتُ الملف إلى مكانه المعتاد، مارستُ عملي لبقية اليوم بلا أي معوقات.

كنتُ أظن أن مشاعري ستكون مضطربة، ربما أشعر ببرودة أناملي، أو ارتجاف يسيطر على جسدي، لكن في الواقع كنت أشعر بالهدوء يتملكني، مبتسمة ومنطلقة وكلي طاقة، الإثارة منحتني شعورًا بالسعادة، ألهذا يخالف بعض الناس القانون؟ لأجل هذه اللحظات من اندفاع الأدرينالين في عروقهم؟ لا بد وأن سعادة أكبر تنتظرني حين أقبض باقي المبلغ من «الأستاذ»، وفرحة غامرة حين يُجري «إياد» العملية الجراحية، ثم تأتي قمة البهجة عندما يعود معي إلى المنزل، إلى أحضاني.

حتمًا لن أخبر «محمد» بما حدث اليوم، بعد أن يخرج للعمل على «التوك توك» سأذهب خلسة إلى مكتب «الأستاذ»، أسلِّمه التقرير، وأتسلَّم نقودي، وفي الصباح أذهب لسداد نفقات الجراحة، وهكذا أضع «محمد» أمام الأمر الواقع، لا بد أنه سيغفر لي ما فعلت حين يرى ولدنا يتمتع بالصحة والعافية، يعود إلى البيت والمدرسة، يلهو ويقفز حولنا، يكبر ويتزوج وينجب لنا أحفادًا نحبُّهم كما أحببناه، سينسى «محمد»؛ فهو ذو قلب طيب، لا يحمل الإساءة، ولا يذكر إلا الحسنات.

انتهى موعد العمل، هرولت إلى المنزل أحضِّر طعام الغداء، بعد نصف ساعة وصل «محمد»، تناول الطعام، ثم حصل على قسط من الراحة، خرج بعدها إلى العمل، واستعددت أنا للذهاب إلى مكتب «الأستاذ».

* * *

(إيمان)

تزايدت الرسائل بيني وبين «فارس»، تحدَّثنا في كل شيء تقريبًا، من الفلسفة إلى الفن إلى العلاقات الإنسانية والأمور الخاصة، كانت وجهات نظره في الحياة مختلفة كثيرًا عن «أمير»، بعض آرائه أعجبتني، وبعضها صدمتني، يعشق الانغماس في الشعور بالحياة، وكأنه يدرك أنه سيفارقها سريعًا، لهذا يحاول أن يقتنص منها أكبر قدر ممكن من التجارب، جدَّد طلبه أكثر من مرة بمقابلتي، وكالعادة لم أرفض، ولم أحدد له موعدًا، ألقي كل طلب في بئر التسويف، حتى وجدتني ذات يوم أوافق مباشرة، هذه المرة تملكني الشغف أن أقابله على أرض الواقع، أن أنظر في عينيه، وهو يتحدث عن نفسه وعن الحياة، قررت أن تكون هذه المرة هي المقابلة الوحيدة التي ستجمعنا، سأحكم السيطرة على الأمر؛ حتى لا أنجرف فيما هو أبعد من هذا، لقد قررتُ أن أعيش كما أحب، لكني لا أحب أن أكون زوجة خائنة، سأكتفي بمقابلة واحدة.

قبل أن أحدد له موعدًا، قررتُ أن ألقي الورقة الأخيرة في يدي على طاولة «أمير»، أخبرته أن زفاف إحدى صديقاتي قريب، وأرغب أن نحضره سويًا، لم

يخب ظني حين رفض، فقد توقعتُ رفضه، تقريبًا توقعتُ حتى نصَّ الجملة التي قالها، أخبرته أني في هذه الحالة لن أصطحب معي الطفلين، سأتركهما عند والدتي، وأذهب إلى الحفل، وأبيتُ الليلة عند أبي، وأعود في اليوم التالي، هزَّ رأسه بالموافقة، ولم يعرض حتى توصيلي إلى بيت أبي، قررتُ في النهاية أن أعيش مغامرتي الخاصة حتى نهايتها، حددت لـ«فارس» موعدًا، سنتقابل في أحد مقاهي وسط البلد، اشترطتُ أن يكون اللقاء قصيرًا، وألا يتطرق إلى أحاديث شخصية، وكأنه لقاء عابر بين اثنين تجاورا في قطار لبعض الوقت، فتبادلا أطراف الحديث، قبِلَ شرطي كما توقعت.

جاء اليوم الموعود، ذهبت صباحًا إلى صالون التجميل، أردتُ أن أكون جميلةً بلا مبالغة، فاتنة في بساطة، اصطحبت الطفلين إلى منزل أبي، وتناولنا معًا طعام الغداء، وبدأت بعدها أستعد لموعدي مع «فارس».

* * *

(منى)

أيقظتُ «أشرف» في التاسعة صباحًا للذهاب إلى شقيق الحاج «نبيل»؛ لبدء العمل على «التوك توك»، لم يستيقظ بسهولة، لكني لم أتركه إلا وهو يغسل وجهه، لم يكن متحمسًا، لكني شجَّعته ودعوت له.

خرج «أشرف»، وشعرت بالسعادة تغمرني، أخيرًا حصل على عمل، لن نحتاج لشراء الطلبات على النوتة من «أم علي» بعد الآن، لن نتعرض لإلحاح الحاج «نبيل» في طلب الإيجار، أدرتُ التلفاز على قناة الأغاني الشعبية، وبدأتُ في

تنظيف المنزل وترتيبه على نغمات الأغاني، شعر «محمود» بفرحتي، فبدأ يشاركني مظاهرها، رقص حولي، وتقافز في سعادة، ساعدني في التنظيف، مرَّت سويعات سريعة ثم طرق باب الشقة، ذهبت لأفتح، وجدت ابن إحدى الجارات يخبرني أن الحاج «نبيل» يريدني في أمر مهم، ارتديتُ عباءتي في عجالة، وهرولت إليه، فجعني بخبر أن «أشرف» تشاجر مع أحد زبائن «التوك توك»، وهو الآن في القسم، هرولتُ نحو قسم الشرطة أبحث عنه، تحمَّلت رذالة بعض أمناء الشرطة حتى استطعت أن أتحدث معه، عرفت أنه أحدث جرحًا بآلة حادة في رأس أحدهم، كدت ألومه، لكن قلبي حزن عليه، وأنا أراه من خلف فتحة صغيرة في باب الحجز، قلتُ في نفسي: «يكفيه ما هو فيه»، طلب مني أن أذهب إلى «جمال» في المساء لاقتراض بعض المال، وأن أطلب منه المساعدة لتوكيل أحد المحامين.

«جمال»!!

هل أعود إلى «جمال» مرة أخرى؟

لم يترك لنا أمين الشرطة فرصة للحديث أكثر من هذا، وأمرني في غلظة للمغادرة، وهو يكاد يدفعني دفعًا إلى خارج القسم، خرجتُ من القسم أحمل همَّ الدنيا على كتفيَّ، أعرف يقينًا ماذا سيطلب «جمال» هذه المرة من أجل نقوده؟ هل أصطحب «محمود» معي اليوم، لعل هذا يمنعه؟ ماذا لو لم يهتم، وتحرش بي أمام الصغير؟ لا، لن أعرِّض طفلي لمثل هذا الموقف أبدًا، سأذهب بمفردي، وليكن الله معي.

* * *

(١٨)

بداية الرحلة قد لا تنبئ بالضرورة عن نهايتها شيئًا، وليس شرطًا أن الكنز في الرحلة ذاتها، كما أنبأتنا قصص الأطفال القديمة، ربما كان الكنز نفسه أن تبدأ الرحلة في حد ذاتها، أن تتحرك من مكانك القديم، وتبتعد عن الماضي، وربما كان الكنز في نهاية الطريق حقًا كما حلمنا في الطفولة، لماذا لم نفكر ونحن صغار أن الكنز كان تحت أيدينا، وأننا خسرناه فعلًا حين بدأت الرحلة؟

يبدو أن كل رحلة لها كنزها الخاص الذي لن يدرك حقيقته إلا المرتحلون.

* * *

(ناهد)

ارتديتُ فستانًا رماديَّ اللون استعدادًا للذهاب إلى مكتب «الأستاذ»، لون يعبِّر بنجاح عن مشاعري الداخلية، أحاسيس تتأرجح في المنطقة الوسطى من كل شيء، سعادة أني اقتربت من توفير نقود الجراحة، تتزاحم مع حزن مخالفة ضميري، لهفة للذهاب في سرعة، يقتلها شعور بالتراجع في اللحظة الأخيرة، اتصلتُ بالسكرتيرة؛ لأتأكد من وجود «الأستاذ»، وأضمن أن نقودي جاهزة، أتوجَّه نحو محطة المترو، أنتظر قليلًا على الرصيف، يصل قطار الأنفاق يجرُّ خلفه طابورًا من العربات القديمة، قررت ألا أركبه، وأنتظر القطار ذا العربات المكيفة رغم برودة خفيفة في أجواء هذا المساء، مرَّ قطاران آخران حتى وصل المترو المكيف، توجَّهت نحو عربة السيدات، لم تكن مزدحمةً، لكني لم

أجد مقعدًا شاغرًا، وقفت وأنا أمسك الحلقة البلاستيكية البيضاء المدلاة من عارضة حديدية مخصصة للركاب؛ للتعلق بها؛ منعًا من السقوط، هل يشبه شكلها حبل المشنقة؟ أم إني أتوهم ذلك؟ للمرة الأولى أتأمل وجوه راكبات المترو، لم تكن سمة مشتركة تجمعهن، أعمار مختلفة، ملامح متباينة، ملابس متعددة، هل المصريون يشبهون بعضهم؟ أم إني ألحظ الاختلاف؛ لأني جزء من هذا النسيج؟ هل يرانا الأجانب كما نراهم ذوي ملامح متشابهة، وجوه بيضاء وشعور شقراء وعيون ملونة دون أن ننتبه للتفاصيل الصغيرة التي تختلف من شخص لآخر؟ شغر أحد المقاعد القريبة، فجلست عليه، دخل القطار إلى النفق، واختفت أضواء الشارع، وصورة السماء من الخلفية، لماذا نحبُّ البراح إذا كنا متلاصقين إلى الحد الخانق، نترك مساحات واسعة من الأرض فريسة لرمال الصحراء ونزدحم داخل المدن، قرأتُ ذات يوم أن ثلث سكان مصر يعيشون في القاهرة الكبرى وحدها، إن الزحام يولِّد العصبية والعنف، لا بد أن نتباعد قليلًا؛ حتى نمنح أنفسنا قدرًا ولو ضئيلًا من الحرية.

توقف القطار فجأة داخل النفق بين محطتي «عرابي» والشهداء»، بعد دقيقتين انطفأت الأنوار تبعها توقّف هدير محركات المراوح، حاولت الراكبات استخدام إضاءة الهواتف المحمولة، ونحن نتساءل جميعًا عن سر هذا التوقف، حتى هتفت إحدى الراكبات:

- هناك حالة انتحار في محطة «عرابي».

* * *

(منى)

ارتديتُ عددًا من الملابس تحت العباءة السوداء، لعل هذه الملابس الكثيرة تعيق «جمال»، أُدرك الآن الصورة بوضوح، أفهم إلى أيِّ قاع وصلتُ؟ وأي تضحية أُقدِّم، لماذا أتحرك بشكل آلي؟ أسير في الشارع وكأني مدفوعة بقوة خفية، قوة تمنعني من التراجع، ما الذي تمثله هذه القوة غير المفهومة؟ هل هو حبي القديم لـ«أشرف»؟ قديم!!، لماذا وجدت نفسي أصف حبي له بالقديم؟ هل لم يعد له وجود في قلبي؟ أم إن ما يدفعني للاستمرار هو رغبتي في الحفاظ على «محمود» حتى أجد له طوق النجاة المناسب للهروب من هذه البيئة التي وُلِد فيها؟ هذه البيئة التي تربَّيت فيها، ولم أكن أدرك مدى سوئها إلا حين اختلطت بأُسر من طبقات أعلى، رأيت كيف تُربِّي الأمهات أبناءهن، كيف يأمرْنَهم باستخدام جُمَل لا ترد في قاموسنا، مثل «من فضلك»، أو «تفضل»، بيئات تزرع في أبنائها الأدب والرقي في الحديث والتصرف واللبس والمأكل والمشرب، بيئات تمنيت لو أن أبني وُلِد فيها بدلًا من ميلاده في حارتنا، أنا لا أعيب حارتنا على إطلاقها، فما زال فيها قيمٌ جميلة من الماضي مثل «الجدعنة» وتكاتف الجيران في الأحزان والأفراح، أو كما نوصف في أفلام الأبيض والأسود بـ«أولاد البلد»، كانت صفة تعني الكثير من المروءة والشهامة والخير، وجدت نفسي في النهاية على رصيف محطة المترو، أنتظر وصول قطار الأنفاق، شعرت بكثرة الملابس تخنقني، سحبت أكبر قدر تتحمله رئتاي من الهواء، قررتُ أن أستقلَّ القطار المكيف، كان من حظي الحسن أن يكون أول مترو يصل إلى رصيف المحطة.

هل كان ذلك من حُسن الحظ فعلًا؟ أم إن الطريق إلى الهاوية سهلٌ إلى هذه الدرجة؟ ركبت في عربة السيدات، ليست مزدحمة، وجدت مقعدًا شاغرًا بجوار سيدة ترتدي اللون الرمادي، تُشبه أمي، ليس في الملامح، لكن شيئًا ما

في نظرتها جعلني أطمئنُّ لها كأمي، جلست بجوارها، فتحركت قليلًا لتفسح لي مكانًا، أرحت ظهري للخلف أفكر فيما سيحدث خلال الساعة القادمة، توجَّع قلبي مما يفعله بي «أشرف»، كيف لا أزال على حبي له؟ لماذا أضحي لأجله دائمًا؟ للمرة الثانية أدرك أن التضحية ليست من أجل «أشرف» بل من أجل «محمود»، ارتسمت على وجهي ابتسامة سخرية، أنا أضحك على نفسي وأجد لها المبررات، أعصب عيني قبل السقوط في الهاوية، لكن ذلك لن يخفف من آلام السقطة، يمكنني أن... توقَّف المترو فجأة داخل النفق، لم يمر وقت طويل قبل أن تنطفئ أنواره وتتوقف مراوحه، بدأ القلق يسري في نفسي فورًا حتى صرخت إحداهن تقول:

- هناك حالة انتحار في محطة «عرابي».

* * *

(إيمان)

قررتُ أن أشتري هدية بسيطة لـ«فارس» قبل أن أذهب للقائه، ساعة يد، ليست باهظة الثمن، لكنها ذات مظهر جذاب، اشتريتها ولفَّها لي صاحبُ المحل في ربطة أنيقة، ثم وضعها في حقيبة كرتونية ملونة، توجهت بعدها نحو محطة المترو، قلبي يدقُّ بتسارُع من هذه المغامرة المجنونة، يندفع الأدرينالين في عروقي، فيمنحني شعورًا بالسعادة، لكنه مصحوب بقدر من الاضطراب والقلق، أختبر مشاعر نسيتها منذ عمر المراهقة، وكأني تلك الفتاة الصغيرة التي تركت محاضرة في كليتها لتذهب لمقابلة حبيبها، أبتسم كطفل

ذاهب في رحلته الأولى إلى الحديقة، وكله شغف للحظات انطلاق يلهو فيها، انتظرتُ على رصيف المحطة قليلًا من الوقت حتى وصل المترو المكيف، ركبت عربة السيدات، واستندت بظهري على الباب في الجهة التي لا تُفتح، نظرت عدة مرات نحو حقيبة الهدية، هل من اللائق أن أشتري له هدية بلا مناسبة؟ وفي لقائنا الأول؟ سأخبئها في حقيبة يدي ولن أظهرها إلا إذا شعرت بأن ذلك مناسبًا، التفتُّ أنظر إلى زجاج الباب ألاحظ صورتي المنعكسة عليه، تأكدت أن شعري الأحمر الناري يبدو جميلًا في شكله الغجري، شعرتُ، وكأن الدماء تتدفق في وجنتيَّ فتزيدني جمالًا، هل أتخيل أن بعض راكبات العربة يختلسن النظر نحوي؟ هل أبدو لافتة إلى هذا الحد؟ أم جميلة إلى الدرجة التي لفتت أنظار النساء قبل الرجال؟ دخل المترو إلى النفق بسرعة تنافس سرعة ضربات قلبي المتوتر، توقف فجأة، فاختلَّ توازني، وأسرعت للإمساك بالحلقات المدلاة حتى لا أسقط، شيء ما همس في عقلي أني في طريقي للسقوط بالفعل، عكَّر هذا الخاطر نفسي فعبست، في نفس اللحظة انطفأت أضواء المترو، ثم تبعتها المحركات والمراوح، شعرت بانقباضة واختناق، فهمت سببهما حين صرخت إحدى الفتيات:

- هناك حالة انتحار في محطة «عرابي».

* * *

(١٩)

تشابكت أقدار راكبات عربة السيدات، وجمعتهن جميعًا داخل النفق المظلم في عربة محكمة الغلق، يكاد ينفد منها الأكسجين، ويقف ملك الموت على أبوابها ينتظر حصاد ما سيسقط من ثمار أرواحهن، شجرة أقدارهن يبدو أنها وصلت إلى مشارف الخريف، ولا أحد يدري إن كان الربيع في انتظارهن، أم إنهن لن يشهدن اخضرار أوراق حياتهن من جديد؟

غريب أمر الدنيا حين تضع ثمارًا مختلفات في نفس السلة، بعضهن لم ينضج بعد، وكثير من الثمار في لحظات النضوج والتوهج، وأخريات قاربن موعد القطاف، لكنهن جميعًا الآن تحت وطأة تجربة ثقيلة، لا يعرفن كيف تنتهي هذه الرحلة؟

خمسة وأربعون دقيقة مرَّت، بدت مثل أفران تنقية الحديد، شديدة الحرارة، ثقيلة الوطأة، لكنها تنقي الحديد من الشوائب وتجعله أصلب وأقوى وأكثر تحملًا، في هذه اللحظات لم يكن يعلمن أن عامل الصيانة استطاع أن يصل إلى ناظر المحطة، ويخبره بأمر العربة المحبوسات بداخلها، لا يعلمن إن كان القدر سيمنحهن بضع دقائق إضافية للنجاة، أم إن النجدة ستصلهن بعد فوات الأوان، تحرّك ناظر المحطة، ومعه عدد من مساعديه نحو النفق؛ لإنقاذ ما يمكن إنقاذه.

* * *

(منى)

الموت قريب

أقرب مما تخيلت، أراه يقف خارج النافذة يشحذ منجله لينال جائزته من روحي، أراه يبتسم في وجهي بسخرية، ويهز كتفيه استهزاءً بي، سيقتنصني وأنا في طريقي لبيع نفسي مقابل جنيهات ستتبخر في لحظات، ويعيش ندمها معي إلى نهاية عمري التي كنت أظنها بعيدة، ولم أتصوَّر أنها على بُعد دقائق مني، سينالني الموت وأنا في الطريق إلى الهاوية، هل يستحق «أشرف» هذا؟ فليذهب إلى الجحيم دوني، أغمضت عيني وأنا أرتجف خوفًا من مصيري، اللون الأسود صحب حياتي منذ بدايتها، منذ تربَّيت يتيمة الأبوين، منذ تزوجتُ مدمنًا للمخدرات عاطلًا عن العمل، أرتديه دائمًا في عباءتي السوداء، والآن أموت داخل نفق يسيطر عليه الظلام الأسود، تجادلت راكبات المترو حول المنتحرة، أظن أني أكثرهن شفقة عليها، لو أن رحى الحياة طحنتني بقدر أزيد قليلًا مما حدث لي لكنت مكانها، ومن يدري، لعلي في طريق عودتي من بيت «جمال» ربما لم أكن لأحتمل قدر التلوث الذي قد أسقط فيه، فأكون مكانها بالفعل، ميتة سريعة، دامية، لعل الدماء تطهر الخطايا، سمعت الشيخ يومًا في عيد الأضحى يقول إن دماء الأضحية تطهِّر من خطايا المُضحي، لم أكن على يقين وقتها من صحة مقولته، لكني الآن قد آمنت بها، قالت إحدى الراكبات إن المنتحرة ماتت كافرة، وما يدريها أي ذنب قد يلوثها ذات يوم ويضعها في نفس الموضع؟ أحسد تلك المتوفاة، وأدعو لها بالرحمة، لو أن عجلات المترو كانت أرحم على نفسها من ضربات الزمن، فأي عذاب واجهت في حياتها؟

هل صحيح أني أحاول إنقاذ «محمود» من الوحل، وأحلم أني أهرب به نحو النور؟ كيف ذلك وأنا كنت على وشك أن أعيش بالوحل في روحي إلى نهاية عمري، وستطارده خطيئتي حتى مماته، إن كنت أخاف عليه حقًا، فلماذا كنت على وشك قبول أن ألوِّثه بأمه، زادت رجفتي، لم أسيطر على نفسي، فأجهشت بالبكاء، ربتت السيدة ذات الفستان الرمادي على كتفي، شعرت في نفسي أني سأصيب يدها الحانية بالدنس، فباعدت كتفي عنها، قالت لي في حنان:

- لا تخافي يا ابنتي، سينقذنا الله.

داريت عينيّ الدامعتين عن نظراتها؛ حتى لا تلمح الخطيئة في نفسي:

- أنا لا أخشى الموت يا سيدتي، بل أخشى الحياة، فالموت راحة والحياة شقاء.

تبسمت السيدة لي في وهن من وطأة اللحظات التي نمر بها:

- الحياة رحلة شاقة دائمة يا ابنتي، لكنها تهون بصحبة الأحباب.

كفكفت دمعي:

- إذن حياتي ليس بها ما يهوّن شقاءها.

لم تزد السيدة في الحديث، لكني شعرت برغبة في طرح همِّي على أعتاب مسامعها، مِلْت نحو أذنها، فمنحتني اهتمامها، بدأت أقصُّ عليها أمري بصوت خفيض، تحدثت في سرعة؛ خوفًا من هروب شجاعتي في الحكي، ضمَّتني

إلى حضنها، للمرة الثانية تُذكِّرني بأمي، فانفجرت في البكاء على صدرها، تعلقتُ برقبتها، فأحكمتْ ذراعها حول جسدي، لم تعلِّق أو تعِب تصرفاتي، لم تلُمني أو تشمئزَّ مني، حين فرغت من البكاء همست في أذني بكلمة واحدة:

- اهربي.

نعم، فتلك الحياة التي تشبه المستنقع وجب منها الهروب، هذا الزوج الذي يبيعني وجب منه الهروب، سأصحب ابني إلى أي مكان، سأبحث عن عمل، بائعة، خادمة، عاملة، أي مهنة شريفة توفر لابني الطعام، سأهرب به ومعه من حياتنا البائسة، لن أتركه ليعيش دائرة أبيه، لن أترك ابني ونفسي، سأحميهما معًا، وليذهب «أشرف» إلى السجن أو إلى القبر أو الجحيم ذاته، لم أعد أهتم، سأهرب من الخطيئة، من الفضيحة، من الوحل.

رنَّ هاتف السيدة، ردَّت في لهفة، ثم سرعان ما تساقطت دموعها غزيرة، أغلقت الخط دون كلمة وشفتيها تتمتم: «رحمتك يا الله».

* * *

(ناهد)

الموت قريب...

يصرُّ على محاصرتي، هل كان يرغب بي منذ البداية بدلًا من «إياد»؟ هل كان مرض «إياد» مجرد اختبار قبل انتهاء رحلتي في الحياة؟ لو أن روحي مقابل

روحه فأنا أقدمها الآن وفورًا وبنفس راضية، فلا قيمة لحياتي من دون «إياد».

أشعر بالاختناق، خفَّفت من إحكام رباط الحجاب حتى أتمكن من التنفس، لم أهتم بالمشاركة في الجدل الدائر بين الراكبات عن المنتحرة، صحيح أني أشفق عليها، وأتمنى لها الرحمة، لكن شيئًا داخلي كان يقول إنها لم تقاتل ضد الحياة كما ينبغي، استسلمتْ، بينما كان يجب عليها الاستمرار في المقاومة، أنا لا أعلم أي شيء عن ظروفها ولا حياتها، إلى أي قدر قاومَتْ؟ هل حقًا يئست وتركت نفسها تسقط مهزومةً أمام رماح الظروف؟ لم أطل التفكير بشأنها؛ فعقلي مشغول بما يكفي، صورة «إياد» ملقىً على سرير المستشفى تحتل كامل وعيي، فلا تترك بعقلي مساحات فارغة للتفكير في أشياء أخرى، سبحت في أفكاري الخاصة، لم ينتزعني منها سوى بكاء هذه الشابة ذات العباءة السوداء، جذب اهتمامي أيضًا هذه المرأة ذات الشعر الأحمر، كانت تجلس في المقعد المقابل متماسكةً بقدر لافت للنظر، لم تبكِ أو تضطرب كالباقيات، لم أنشغل بها كثيرًا، فهناك سؤال وُلِد في عقلي وبدأ ينمو ويسيطر على أفكاري، كيف سأجتاز هذا الاختبار؟ أعترف لنفسي بأني أجيب الإجابات الخاطئة، لكن وقت الامتحان لم ينتهِ بعد، ما زالت أمامي الفرصة كي أجيب الإجابة الصحيحة، أن أعود بعد انتهاء هذه المحنة إلى منزلي، وغدًا أعيد التقرير الأصلي إلى الملف، الآن أدرك ضعفي وخطأي، هل لو متُّ في هذه العربة سأموت على معصية تحرمني من مصاحبة «إياد» في الجنة؟ أفزعني هذا الخاطر، حتى إني ارتجفت، يا رب، لن أسقط في فخ الخطيئة يا الله، سأتراجع، لكني أدعوك أن تنقذ ابني من الألم، من الموت، يا رب، أعدك أني أعود إليك.

انفجرت الشابة ذات العباءة السوداء في البكاء، وجدت نفسي مدفوعةً للشفقة عليها دون أن أدري ما أمرها، طلبت منها أن تؤمن أن اللّٰه سيساعدنا في هذا الاختبار، حاولت أن تتماسك مثلما أحاول، لكنها عادت تبكي من جديد، احتضنتها فتعلقت برقبتي، وألقت حمل قلبها مع الدموع، همست لي بحكايتها في سرعة، ترقرقت عيوني بالدموع لأجلها، يا اللّٰه، هناك في الحياة هموم ثقيلة الوطأة على القلوب مثل همي، هناك اختبارات أخرى تدهس النفوس بقسوتها، لا أدري من همس في أذنها؟ أنا؟ «ناهد»؟ المرأة التي على شفير السقوط في هاوية المعصية؟ أم ضميري الذي بدأ ينفض عن كاهله سِنَةً من النوم أغفلته؟ المهم أن كلمة واحدة همست بها: «اهربي»، هل كنت أقولها لها؟ أم لنفسي؟

نعم، سأهرب أنا أيضًا من هذا الفخ، لن أستمرَّ في هذا الخطأ، الحمد لله أني لم أعطِ التقرير الأصلي لـ«الأستاذ» بعد، سأعيده إلى الملف، وليدبِّر اللّٰه لي الأمر بعد ذلك، «محمد» محقٌّ، الأموال الحرام لن تشفي ولدي، رنَّ هاتفي المحمول باتصال من «محمد»، فتحت الخط في لهفة، كيف فاتني أن أحدثه قبل أن أموت، سمعت صوته مملوءًا بالسعادة:

- «ناهد».. هل تعرفين جمعية «الأمل» الخيرية، لقد عرضت عليهم تقارير «إياد» الطبية، وقبلوا التبرع بنقود الجراحة، غدًا سيذهب معي مندوبهم إلى المستشفى لسداد التكاليف.

لم أردَّ عليه بكلمة، فقد عجز لساني عن الرد، ألجمته الفرحة، «رحمتك يا اللّٰه».

* * *

(إيمان)

الموت قريب..

الموت نذير، ينذرني الآن بجرمي، جرم الخطو في طريق الخيانة، صحيح أني لم أكن أخطط للسقوط في هذا البئر، لكن أليس مجرد حديثي مع رجل آخر خيانة؟ الخيانة ليست فقط بعلاقة جسدية، الخيانة تبدأ من العقل، ما أفعله خيانة، مقابلة «فارس» خيانة.

من أين لي بهذه القوة؟ لماذا لا أشعر بالخوف مثل الباقيات؟ كيف أجد في نفسي هذا اليقين أني سأعود إلى بيتي وزوجي وأولادي؟ جميعهن خائفات مرتجفات باكيات إلا أنا، حتى الندم لم يضعني في دائرة الخوف.

الموت قريب حقًا، لكني أشعر أنه بعيد عني الآن، ربما يحوم حول العربة في الانتظار، لكن قلبي يحدثني أنه لن ينالني هنا في هذه العربة، أعرف أني سأحصل على فرصة أخرى أصحح بها خطأي، دوامة الأفكار تسحب عقلي بعيدًا عن هذه الأزمة، تعيد تشكيل الصورة من جديد بشكل واضح، «أمير» شخص طيب، يحبني، يبدو هذا في كثير من تصرفاته، قد لا يقول ذلك، لكنه يتصرف من هذا الأساس غالبًا، جلسة المقهى التي تختطفه مني غير قادرة على هزيمتي، أوقن بأني أستطيع استعادته، ابناي لا يستحقان مني هذا، و«أمير» أيضًا، سأتصل به، وأخبره كم أحبه، كم أحتاجه، سأقطع علاقتي بـ«فارس»، ولن أسمح لنفسي بتكرار هذه الفعلة أبدًا.

ظهور عامل الصيانة ومحاولته مساعدتنا روت بذور الأمل في نفسي، فنمت سريعًا، واحتوت روحي، زادتني يقينًا أني سأخرج من هذه الأزمة قريبًا، لكني سأجتازها أقوى وأصلب وأنقى، تركزت عيناي على السيدة ذات الفستان الرمادي، وهي تحتضن الفتاة ذات العباءة السوداء الباكية، لا يعرفان بعضهما قبل الآن، لكن حنانًا تدفَّق في قلبيهما لبعضهما، نهضتُ من مقعدي واقتربتُ منهما، واحتضنتهما معًا، وكأن نفسي تقول لي امنحيهما بعضًا من تماسكك، شيئًا من قوتك، بثي فيهما الطمأنينة التي تشعرين بها، وفي داخلي تنمو مشاعر الندم، أشتاق الآن لحضن «أمير»، وضمّ طفليَّ إلى صدري.

ورد اتصال هاتفي للمرأة ذات الفستان الرمادي، أبكاها من الفرحة، ربتت على كتفها في سعادة دون أن أعرف سبب فرحتها، فسألتها، حكت لنا عن مرض طفلها، وأن زوجها استطاع أن يجد طريقة لتوفير نقود جراحته، ضممتها إلى صدري، فشاركتنا الفتاة ذات العباءة السوداء، ارتسمت على وجوهنا ابتسامات بسيطة لكنها صادقة، تحدثنا معًا، وتقاربت أرواحنا في سرعة وكأننا أصدقاء منذ عمر بعيد.

* * *

(عربة السيدات)

وصل ناظر المحطة بصحبة معاونيه وعامل الصيانة إلى حيث القطار المتوقف داخل النفق، مروا بجوار عربة السيدات، أشاروا لهن بالثبات؛ فقد انتهت المحنة، صعد الناظر إلى كابينة القيادة، وضع المفتاح في لوحة التحكم وأدار المحركات، أعاد تشغيل التكييف، فتح الأبواب في الوقت الذي طلب مساعدوه من الراكبات عدم النزول، فقد انتهى سبب التوقف، وسيعود المترو إلى العمل الآن، صعد أحد المعاونين إلى العربة، وسأل عن صحة الراكبات، اطمأنَّ أنهن بخير، لا توجد حالات إغماء أو إصابات، تنفَّس الرجل الصعداء، وعادت الراكبات إلى الحياة من جديد، نزل الرجل من العربة، وتوجَّه نحو كابينة القيادة، بدأ المترو يتحرك نحو محطة عرابي، على الرصيف كان هناك زحام كبير، قررت بعض راكبات المترو أن يكملن رحلتهن بعد أن نجون من الموت، بينما خرجت «ناهد» و«منى» و«إيمان» إلى الرصيف، ينظرن لبعضهن مبتسمات، تبادلن الأحضان وأرقام الهواتف، قررن الاحتفاظ بهذه الذكرى إلى الأبد، ستقصُّها كل منهن على أحفادها ذات يوم، وكيف أن خمسة وأربعين دقيقة في عربة السيدات استطاعت أن تغيِّر مجرى الحياة.

* * *

(تمت)

القاهرة في ٢٨/٨/٢٠١٩